

كتاب آداب العزلة

وهو الكتاب السادس من ربيع العادات من كتب احياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أعظم النعمة على خيرة خلقه وصفوته بأن صرف همهم إلى مؤانسته، وأجزل حظهم من التلذذ بمشاهدة آلائه وعظمته، وروح أسرارهم بمناجاته وملاطفته، وحقر في قلوبهم النظر إلى متاع الدنيا وزهرتها حتى اغتبط بعزلته كل من طويت الحجب عن مجاري فكرته فاستأنس بمطالعة سبحات وجهه تعالى في خلوته، واستوحش بذلك عن الأنس بالإنس وإن كان من أخص خاصته، والصلاة على سيدنا محمد سيد أنبيائه وخيرته وعلى آله وصحباؤه سادة الحق وأئمنته.

أما بعد: فإن للناس اختلافاً كثيراً في العزلة والمخالطة وتفضيل إحداهما على الأخرى، ومع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن غوائل تنفر عنها وفوائد تدعو إليها، وميل أكثر العباد والمزهد إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة، وما ذكرناه في كتاب الصحة من فضيلة المخالطة والمؤاخاة والمؤالفة يكاد يناقض ما مال إليه الأكثرون من اختيار الاستيحاش والخلوة، فكشف الغطاء عن الحق في ذلك مهم. ويحصل ذلك برسم بابين.

الباب الأول: في نقل المذاهب والحجج فيها.

الباب الثاني: في كشف الغطاء عن الحق بحصر الفوائد والغوائل.

الباب الأول في نقل المذاهب والإقاويل وذكر حجج الفريقين في ذلك

أما المذاهب فقد اختلف فيها وظهر هذا الاختلاف بين التابعين. فذهب إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة: سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، وداود الطائفي، وتفضيل بن عياض، وسليمان الخواص، ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشي، وبشر الحافي.

وقال أكثر التابعين باستحباب المخالطة واستكثار المعارف والإيجوان والتألف والتحبب إلى المؤمنين والاستعانة بهم في الدين تعاوناً على البر والتقوى ومال إلى هذا: سعيد بن المسيب، والشعبي، وابن أبي ليلي، وهشام بن عروة، وابن شبرمة، وشريح، وشريك بن عبد الله، وابن عمينة، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وجماعة.

والمأثور عن العلماء من الكلمات ينقسم إلى كلمات مطلقة تدل على الميل إلى أحد الرأيين، وإلى كلمات مقرونة بما يشير إلى علة الميل. فلننقل الآن مطلقات تلك الكلمات لنبين المذاهب فيها، وما هو مقرون بذكر العلة نوره عند التعرض للغوائل والفوائد، فنقول: قد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: خذوا بحظكم من العزلة. وقال ابن سيرين: العزلة

عبادة. وقال الفضيل: كفى بالله محبًا وبالقرآن مؤنسًا وبالموت واعظًا. وقيل: اتخذ الله صاحبًا ودع الناس جانبًا. وقال أبو الربيع الزاهد لداود الطائي: عطني، قال: صُم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة وفّر من الناس فرارك من الأسد. وقال الحسن رحمه الله: كلمات أحفظهن من التوراة؛ قنع ابن آدم فاستغنى، اعتزل الناس فسلم، ترك الشهوات فصار حرًا، وترك الحسد فظهرت مروءته، صبر قليلًا فتمتع طويلًا. وقال وهيب بن الورد: بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت والعاشر في عزلة الناس. وقال يوسف بن مسلم لعلي بن بكار: ما أصبرك على الوحدة؟ - وقد كان لزم البيت - فقال: كنت وأنا شاب أصبر على أكثر من هذا؛ كنت أجالس الناس ولا أكلمهم. وقال سفيان الثوري: هذا وقت السكوت وملازمة البيوت. وقال بعضهم: كنت في سفينة ومعنا شاب من العلوية فمكث معنا سبعا لا نسمع له كلامًا؛ فقلنا له: يا هذا قد جمعنا الله وإياك منذ سبع ولا نراك تخالطنا ولا تكلمنا، فأنشأ يقول:

قليلُ الهمِّ لا ولد يموت ولا أمر يحاذره يفوتُ
قضى وطُرَّ الصبا وأفاد علما فغايته التفرد والسكوتُ

وقال إبراهيم النخعي لرجل تفقه ثم اعتزل، وكذا قال الربيع بن خيثم.

وقيل كان مالك بن أنس يشهد الجنائز، ويعود المرضى، ويعطي الإخوان حقوقهم، فترك ذلك واحدًا واحدًا حتى تركها كلها، وكان يقول: لا يتيهأ للمرء أن يخبر كل عذر له. وقيل لعمر بن عبد العزيز: لو تفرغت لنا؟ فقال: ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله تعالى. وقال الفضيل: إنني لأجد للرجل عندي يداً: إذا لقيني أن لا يسلم علي، وإذا مرضت أن لا يعودني. وقال أبو سليمان الداراني: بينما الربيع بن خيثم جالس على باب داره إذ جاءه حجر فصك جبهته فشجه، فجعل يمسح الدم ويقول: لقد وعظت يا ربيع، فقام ودخل داره فما جلس بعد ذلك على باب داره حتى أخرجت جنازته. وكان سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد لهما بيوتهما بالعقيق فلم يكونا يأتیان المدينة لجمعة ولا غيرها حتى ماتا بالعقيق. وقال يوسف بن أسباط: سمعت سفيان الثوري يقول: والله الذي لا إله إلا هو لقد حلت العزلة. وقال بشر بن عبد الله: أقل من معرفة الناس فإنك لا تدري ما يكون يوم القيامة، فإن تكن فضيحة كان من يعرفك قليلًا. ودخل بعض الأمراء على حاتم الأصم فقال له: ألك حاجة؟ قال: نعم، قال: وما هي؟ قال أن لا تراني ولا أراك ولا تعرفني. وقال رجل لسهل: أريد أن أصحبك، فقال: إذا مات أحدنا فمن يصحب الآخر؟ قال: الله قال: فليصحبه الآن. وقيل للفضيل: إن عليًا ابنك يقول لوددت أنني في مكان أرى الناس ولا يروني؛ فبكى الفضيل وقال: يا ويح علي أفلا أتمها فقال لا أراهم ولا يروني؟ وقال الفضيل أيضًا: من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أفضل المجالس مجلس في قعر بيتك لا ترى ولا تُرى. فهذه أقاويل المائلين إلى العزلة.

ذكر جميع المائلين الى المخالطة ووجه ضعفها:

احتج هؤلاء بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ [آل عمران: ١٠٥] الآية. وبقوله تعالى: ﴿فَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣] امتن على الناس بالسبب المؤلف وهذا ضعيف؛ لأن المراد به تفرق الآراء واختلاف المذاهب في معاني كتاب الله وأصول الشريعة. والمراد بالألفة نزع الغوائل من الصدور وهي الأسباب المثيرة للفتن المحركة للخصومات، والعزلة لا تنافي ذلك.

واحتجوا بقوله ﷺ «الْمُؤْمِنُ إِنْ لَمْ يَأْلُفْ مَأْلُوفٌ وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلُفُ وَلَا يُؤْلَفُ» (١) وهذا ضعيف لأنه إشارة إلى مذمة سوء الخلق تمتنع بسببه المؤلفه، ولا يدخل تحته الحسن الخلق الذي إن خالط ألف وألف، ولكنه ترك المخالطة اشتغالا بنفسه وطلبًا للسلامة من غيره.

واحتجوا بقوله ﷺ «مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ» وقال: «مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ فَمِيتُهُ جَاهِلِيَّةٌ» (٢)، وبقوله ﷺ «مَنْ شَقَّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمُونَ فِي إِسْلَامٍ دَامِجٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ» (٣)، وهذا ضعيف لأن المراد به الجماعة التي اتفقت آراؤهم على إمام بعقد البيعة فالخروج عليهم بغي، وذلك مخالفة بالرأي وخروج عليهم وذلك محذور لا يضطرار الخلق إلى إمام مطاع يجمع رأيهم ولا يكون ذلك إلا بالبيعة من الأكثر، فالمخالفة تشويش مثير للفتنة فليس في هذا تعرض للعزلة.

واحتجوا بنهيه ﷺ عن الهجر فوق ثلاث إذ قال: «مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ فَمَاتَ دَخَلَ النَّارَ» (٤)، وقال عليه السلام: «لَا يَجِلُّ لِأَمْرِيءٍ مُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ وَالسَّابِقُ بِالصُّلْحِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ» (٥)، وقال: «مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَافِكٍ ذَمِيهِ» (٦)، قالوا: والعزلة

٥٢٠ كتاب العزلة، الباب الأول: في نقل المذاهب والحجج فيها

(١) حسن: حديث «المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف». تقدم في الباب الأول من آداب الصحبة [انظر صحيح الجامع: ٦٦٦٢].

(٢) صحيح: حديث «من ترك الجماعة فمات فميتته جاهلية». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم في الباب الخامس من كتاب الحلال والحرام [مسلم: ١٨٤٨].

(٣) صحيح: حديث «من شق عصا المسلمين والمسلمون في إسلام دامج فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه». أخرجه الطبراني والخطابي في العزلة من حديث ابن عباس بسند جيد [أبو داود: ٤٧٥٨ بنحوه، ولكنه قال: «من فارق الجماعة شبرًا» من حديث أبي ذر، وانظر صحيح أبي داود].

(٤) صحيح: حديث «من هجر أخاه فوق ثلاث فمات فدخل النار». أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح [أبو داود: ٤٩١٤، وانظر صحيح الترغيب: ٢٧٥٧].

(٥) صحيح: حديث لا يحل لأمرئ أن يهجر أخاه فوق ثلاث والسابق بالصلح يدخل الجنة [البخاري: ٦٠٦٥، مسلم: ٢٥٥٩]. متفق عليه من حديث أنس دون قوله «والسابق بالصلح» زاد فيه الطبراني «والذي يبدأ بالصلح يسبق إلى الجنة» [انظر صحيح الترغيب: ٢٧٥٥].

(٦) صحيح: حديث «من هجر أخاه سنة فهو كسافك دمه». أخرجه أبو داود من حديث أبي خراش السلمي واسمه حدر بن أبي حدر وإسناده صحيح [انظر صحيح الترغيب: ٢٧٦٢].

هجره بالكلية. وهذا ضعيف لأن المراد به الغضب على الناس واللجاج فيه بقطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة، فلا يدخل فيه ترك المخالطة أصلاً من غير غضب. مع أن الهجر فوق ثلاث جائز في موضعين: أحدهما: أن يرى فيه إصلاحاً للمهجور في الزيادة.

الثاني: أن يرى لنفسه سلامة فيه. والنهي وإن كان عامًا فهو محمول على ما وراء الموضوعين المخصوصين بدليل ما روي عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ هجرها ذا الحجة والمحرم وبعض صفر^(١). وروي عن عمر: أنه ﷺ اعتزل نساءه وآلى منهن شهرًا وصعد إلى غرفة له وهي خزائنه فلبث تسعًا وعشرين يومًا؛ فلما نزل قيل له: إنك كنت فيها تسعًا وعشرين، فقال: «الشهر قد يكون تسعًا وعشرين»^(٢)، وروت عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ لَا تُؤْمِنُ بَوَائِقُهُ»^(٣)، فهذا صريح في التخصيص وعلى هذا ينزل قول الحسن رحمه الله حيث قال: هجران الأحمق قرابة إلى الله فإن ذلك يدوم إلى الموت إذ الحماقه لا ينتظر علاجها.

وذكر عند محمد بن عمر الواقدي رجل هجر رجلًا حتى مات؛ فقال: هذا شيء قد تقدّم فيه قوم؛ سعد بن أبي وقاص كان مهاجرًا لعمار بن ياسر حتى مات، وعثمان بن عفان كان مهاجرًا لعبد الرحمن بن عوف، وعائشة كانت مهاجرة لحفصة. وكان طاوس مهاجرًا لوهب ابن منبه حتى ماتا. وكل ذلك يحمل على رؤيتهم سلامتهم في المهاجرة.

واحتجوا بما روي: أن رجلاً أتى الجبل ليتعبد فيه فجيء به إلى رسول الله ﷺ فقال: «لَا تَفْعَلْ أَنْتَ وَلَا أَحَدٌ مِنْكُمْ لَصَبْرٍ أَحَدِكُمْ فِي بَعْضِ مَوَاطِنِ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ عِبَادَةِ أَحَدِكُمْ أَرْبَعِينَ عَامًا»^(٤)، والظاهر أن هذا إنما كان لما فيه من ترك الجهاد مع شدة وجوبه في ابتداء الإسلام بدليل ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: غزونا مع رسول الله ﷺ فمررنا

(١) حسن لغيره: حديث «أنه ﷺ هجر عائشة ذا الحجة والمحرم وبعض صفر». قلت: إنما هجر زينب هذه المدة كما رواه أبو داود من حديث عائشة وسكت عليه فهو عنده صالح [أبو داود: ٤٦٠٢، وانظر صحيح الترمذي: ٢٨٣٥].

(٢) صحيح: حديث عمر «أنه ﷺ اعتزل نساءه وآلى منهن شهرًا وصعد إلى غرفة له وهي خزائنه فلبث تسعًا وعشرين يومًا، فلما نزل قيل له: إنك كنت فيها تسعًا وعشرين، فقال: «الشهر قد يكون تسعًا وعشرين». متفق عليه [البخاري: ٢٤٦٨، مسلم: ١٤٧٩].

(٣) حديث عائشة «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث إلا أن يكون ممن لا يأمن بوائقه». أخرجه ابن عدي وقال غريب المتن والإسناد وحديث عائشة عند أبي داود دون الاستثناء بإسناد صحيح [أبو داود: ٤٩١٣، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود، والحديث كاملاً بالاستثناء انظر السلسلة الضعيفة: ٤١١٩، وقال الألباني باطل زيادة آخره].

(٤) حديث «أن رجلاً أتى الجبل ليتعبد فيه فجيء به رسول الله ﷺ فقال «لا تفعل أنت ولا أحد منكم لصبر أحدكم في بعض مواطن الإسلام خير له من عبادة أحدكم وحده أربعين عامًا». أخرجه البيهقي من حديث عسمن بن سلامة قال ابن عبد البر يقولون أن حديثه مرسل وكذا ذكره ابن حبان في ثقات التابعين.

بشعب فيه عيينة طيبة الماء؛ فقال واحد من القوم: لو اعتزلت الناس في هذا الشعب ولن أفعل ذلك حتى أذكره لرسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ مَقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِهِ فِي أَهْلِهِ سِتِّينَ عَامًا. أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَتَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ اغْرَؤُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُ مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُؤَادًا نَاقَةَ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ»^(١).

واحتجوا بما روى معاذ بن جبل أنه قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ ذُئِبُ الْإِنْسَانِ كَذُئِبِ الْغَنَمِ يَأْخُذُ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ وَالشَّارِدَةَ وَإِيَّاكُمْ وَالشُّعَابَ وَعَلَيْكُمْ بِالْعَامَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَالْمَسَاجِدِ»^(٢)، وهذا إنما أراد به من اعتزل قبل تمام الغلم، وسيأتي بيان ذلك وأن ذلك ينهى عنه إلا لضرورة. ذكر صحيح المائلين إلى تفضيل العزلة:

احتجوا بقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزَلْتُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ [مريم: ٤٨] الآية. ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩] إشارة إلى أن ذلك ببركة العزلة. وهذا ضعيف لأن مخالطة الكفار لا فائدة فيها إلا دعوتهم إلى الدين. وعند اليأس من إجابتهم فلا وجه إلا هجرهم، وإنما الكلام في مخالطة المسلمين وما فيها من البركة لما روي أنه قيل: يا رسول الله الوضوء من جر مخمر أحب إليك أو من هذه المطاهر التي يتطهر منها الناس؟ فقال: «بَلْ مِنْ هَذِهِ الْمَطَاهِرِ التَّمَاسَا لِيَرْكَةَ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ»^(٣)، وروي أنه ﷺ لما طاف بالبيت عدل إلى زمزم ليشرب منها، فإذا التمر المنقع في حياض الأدم وقد مغته الناس بأيديهم وهم يتناولون منه ويشربون، فاستسقى منه وقال: «اسقوني» فقال العباس: إن هذا النبيذ شراب قد مغث وخيض بالأيدي أفلا آتيتك بشراب أنظف من هذا من جر مخمر في البيت؟ فقال: «اسقوني من هذا الَّذِي يَشْرَبُ مِنْهُ النَّاسُ أَلْتَمِسُ بَرَكَةَ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ» فشرب منه^(٤)، فإذا كيف يستدل

(١) حسن: حديث أبي هريرة غزونا مع رسول الله ﷺ فمررنا بشعب فيه عيينة طيبة الماء، فقال واحد من القوم: لو اعتزلت الناس في هذا الشعب ولن أفعل ذلك حتى أذكره لرسول الله ﷺ فقال ﷺ: «لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ مَقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِهِ فِي أَهْلِهِ سِتِّينَ عَامًا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَتَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ اغْرَؤُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُ مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُؤَادًا نَاقَةَ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ». أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم إلا أن الترمذي قال سبعة عام [الترمذي: ١٦٥٠، وانظر ضعيف: ١٣٠١].

(٢) ضعيف: حديث معاذ بن جبل «الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم: يأخذ القاصية». أخرجه أحمد والطبراني ورجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعا [أحمد: ٢١٥٢٤، انظر ضعيف الترغيب: ٢٠٦].

(٣) حسن: حديث «قيل له ﷺ الوضوء من جر مخمر أحب إليك أو من هذه المطاهر التي يتطهر منها الناس؟ فقال: بل من هذه المطاهر، التماسا لبركة أيدي المسلمين». أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر وفيه ضعف [انظر صحيح الجامع: ٤٨٩٤].

(٤) حديث «لما طاف بالبيت عدل إلى زمزم يشرب منها فإذا التمر المنقع في حياض الأدم وقد مغته الناس بأيديهم وهم يتناولون منه ويشربون، فاستسقى منه وقال: «اسقوني» فقال العباس: إن هذا النبيذ شراب قد مغث

باعترال الكفار والأصنام على اعتزال المسلمين مع كثرة البركة فيهم؟.

واحتجوا أيضًا بقول موسى عليه السلام: ﴿وَلَنْ لَّرُؤُوسًا لِّي فَاغْرِبُونَ﴾ [الدخان: ٢١] وأنه فرع إلى العزلة عند اليأس منهم وقال تعالى في أصحاب الكهف: ﴿وَإِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُغْبُوتُ إِلَّا اللَّهُ فَاوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الكهف: ١٦] أمرهم بالعزلة. وقد اعتزل نبينا ﷺ قريشًا لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعترالهم والهجرة إلى أرض الحبشة^(١)، ثم تلاحقوا به إلى المدينة بعد أن أعلى الله كلمته. وهذا أيضًا اعتزال عن الكفار بعد اليأس منهم، فإنه لم يعتزل المسلمين ولا من توقع إسلامه من الكفار. وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضًا وهم مؤمنون وإنما اعتزلوا الكفار، وإنما النظر في العزلة من المسلمين.

واحتجوا بقوله ﷺ لعبد الله بن عامر الجهني لما قال: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: ﴿لَيْسَعَكَ بَيْتُكَ وَأَمْسِكَ عَلَيْكَ لِسَانُكَ وَابِكْ عَلَى خَطِيئَتِكَ﴾^(٢)، وروي أنه قيل له ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: «مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى» قيل: ثم من؟ قال: «رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي شَعْبٍ مِنَ الشُّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَدْعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ»^(٣)، وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

وخيض بالأيدي أفلا أتيتك بشراب أنظف من هذا من جر مخمر في البيت؟ فقال: «اسقوني من هذا الذي يشرب منه الناس ألتمس بركة أيدي المسلمين»، فشرب منه فإذن كيف يستدل باعترال الكفار والأصنام على اعتزال المسلمين مع كثرة البركة فيهم». رواه الأزرق في تاريخ مكة من حديث ابن عباس بسند ضعيف ومن رواية ابن طاووس مرسلًا نحوه.

(١) حديث «اعتزاله ﷺ قريشًا لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعترالهم والهجرة إلى أرض الحبشة، ثم تلاحقوا به إلى المدينة بعد أن أعلى الله كلمته وهذا أيضًا اعتزال عن الكفار بعد اليأس منهم فإنه ﷺ لم يعتزل المسلمين ولا من توقع إسلامه من الكفار. وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضًا وهم مؤمنون وإنما اعتزلوا الكفار، وإنما النظر في العزلة من المسلمين». رواه موسى بن عقبة في المغازي ومن طريقه البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب مرسلًا، ورواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن شهاب علي بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام مرسلًا أيضًا، ووصله من رواية أبي سلمة الحضرمي عن ابن عباس إلا أن ابن سعد ذكر أن المشركين حصروا بني هاشم في الشعب، وذكر موسى بن عقبة أن أبا طالب جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله شعبهم، ومغازي موسى بن عقبة أصح المغازي وذكر موسى بن عقبة أيضًا أنه أمر أصحابه حين دخل الشعب بالخروج إلى أرض الحبشة، ولأبي داود من حديث أبي موسى أمرنا النبي ﷺ أن ننتقل إلى أرض النجاشي. قال البيهقي وإسناده صحيح، [أبو داود: ٣٢٠٥، وانظر ضعيف أبي داود]، ولأحمد من حديث ابن مسعود. بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي [أحمد: ٤٣٨٦]، وروى ابن اسحق بإسناد جيد ومن طريقه البيهقي في الدلائل من حديث أم سلمة «إن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده... الحديث، [انظر السلسلة الصحيحة: ٣١٩٠].

(٢) صحيح: حديث «سأله عقبة بن عامر: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: ليسعك بيتك وأمسك عليك لسانك وابتك على خطيئتك». أخرجه الترمذي من حديث عقبة وقال حسن، [الترمذي: ٢٤٠٦، انظر صحيح الترغيب: ٢٧٤١].

(٣) صحيح: حديث «أي الناس أفضل؟ قال: مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله تعالى، قيل: ثم من؟ قال: رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره». متفق عليه من حديث أبي سعيد

العَبْدُ التَّقِيُّ النَّقِيُّ الْخَفِيُّ»^(١).

وفي الاحتجاج بهذه الأحاديث نظر، فأما قوله لعبد الله بن عامر فلا يمكن تنزيهه إلا على ما عرفه عليه السلام بنور النبوة من حاله، وأن لزوم البيت كان أليق به وأسلم له من المخالطة، فإنه لم يأمر جميع الصحابة بذلك، ورب شخص تكون سلامته في العزلة لا في المخالطة كما قد تكون سلامته في القعود في البيت وأن لا يخرج إلى الجهاد، وذلك لا يدل على أن ترك الجهاد أفضل. وفي مخالطة الناس مجاهدة ومقاساة، ولذلك قال عليه السلام: «الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»^(٢)، وعلى هذا ينزل قوله عليه السلام: «رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ يَغْتَدُّ رَبَّهُ وَيَدْعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ» فهذه إشارة إلى شرب بطبعه تتأذى الناس بمخالطته. وقوله: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّقِيَّ الْخَفِيَّ»، إشارة إلى إيثار الخمول وتوقي الشهرة. وذلك لا يتعلق بالعزلة فكم من راهب معتزل تعرفه كافة الناس؟ وكم من مخالط شامل لا ذكر له ولا شهرة؟ فهذا تعرض لأمر لا يتعلق بالعزلة.

واحتجوا بما روي أنه عليه السلام قال لأصحابه: «أَلَا أُنبئُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ؟» قالوا: بلى يا رسول الله، فأشار بيده نحو المغرب وقال: «رَجُلٌ آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَنْتَظِرُ أَنْ يُغَيَّرَ أَوْ يُغَارَ عَلَيْهِ. أَلَا أُنبئُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ بَعْدَهُ؟» وأشار بيده نحو الحجاز وقال: «رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ وَيَعْلَمُ حَقَّ اللَّهِ فِي مَالِهِ اعْتَزَلَ شُرُورَ النَّاسِ»^(٣)، فإذا ظهر أن هذه الأدلة لا شفاء فيها من الجانبين فلا بد من كشف الغطاء بالتصريح بفوائد العزلة وغوائلها ومقاييس بعضها ببعض ليتبين الحق فيها.

الباب الثاني في فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق في فضلها

اعلم أن اختلاف الناس في هذا يضاهاى اختلافهم في فضيلة النكاح والعزوبة. وقد ذكرنا أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص بحسب ما فصلناه من آفات النكاح وفوائده،

الخدري، [البخاري: ٢٧٨٦، مسلم: ١٨٨٨].

(١) صحيح: حديث [إن الله يحب العبد التقي النقي الخفي]. أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص، [مسلم: ٢٩٦٥].

(٢) صحيح: حديث [الذي يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم]. أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر ولم يسم الترمذي الصحابي قال شيخ من أصحاب النبي عليه السلام والطريق واحد، [الترمذي: ٢٥٠٧، ابن ماجه: ٤٠٣٢، انظر السلسلة الصحيحة: ٦٣٩].

(٣) صحيح: حديث: ألا أنبئكم بخير الناس؟ قالوا: بلى، قال: فأشار بيده نحو المغرب وقال «رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ينتظر أن يغير أو يغار عليه ألا أنبئكم بخير الناس بعده؟» وأشار بيده نحو الحجاز وقال «رجل في غنمه يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعلم حق الله في ماله اعتزل شرور الناس». أخرجه الطبراني من حديث أم مبشر إلا أنه قال: نحو المشرق، بدل: المغرب، وفيه ابن إسحاق رواه بالنعنة وللترمذي والنسائي نحوه مختصرا من حديث ابن عباس قال الترمذي حديث حسن، [الترمذي: ١٦٥٢، انظر صحيح الترغيب: ٢٧٣٧].

فكذلك القول فيما نحن فيه. فلنذكر أولاً فوائد العزلة وهي تنقسم إلى فوائد دينية ودنيوية. والدينية تنقسم إلى ما يمكن من تحصيل الطاعات في الخلوة والمواظبة على العبادة والفكر وتربية العلم، وإلى تخلص من ارتكاب المناهي التي يتعرض الإنسان لها بالمخالطة، كالرياء والغيبة والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة من جلساء السوء. وأما الدنيوية فتقسم إلى ما يمكن من التحصيل بالخلوة؛ كتمكين المحترف في خلوته إلى ما يخلص من محذورات يتعرض لها بالمخالطة، كالنظر إلى زهرة الدنيا وإقبال الخلق عليها وطمعه في الناس وطمع الناس فيه، وانكشاف ستر مروءته بالمخالطة والتأذي بسوء خلق الجليس في مرأته أو سوء ظنه أو نميمته أو محاسدته أو التأذي بثقله وتشويه خلقته. وإلى هذا ترجع مجامع فوائد العزلة فلنحصرها في ست فوائد:

الفائدة الأولى:

التفرغ للعبادة والفكر والاستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق، والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملكوت السموات والأرض، فإن ذلك يستدعي فراغاً ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إليه. ولهذا قال بعض الحكماء: لا يتمكن أحد من الخلوة إلا بالتمسك بكتاب الله تعالى. والتمسكون بكتاب الله تعالى هم الذين استراحوا من الدنيا بذكر الله الذاكرون الله بالله عاشوا بذكر الله وماتوا بذكر الله ولقوا الله بذكر الله. ولا شك في أن هؤلاء تمنعهم المخالطة عن الفكر والذكر فالعزلة أولى بهم. ولذلك كان ﷺ في ابتداء أمره يتبتل في جبل حراء وينعزل إليه حتى قوي فيه نور النبوة^(١) فكان الخلق لا يحجبونه عن الله فكان يبذنه مع الخلق وبقلبه مقبلاً على الله تعالى حتى كان الناس يظنون أن أبا بكر خليله. فأخبر النبي ﷺ عن استغراق همه بالله فقال: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنْ صَاحِبِكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ»^(٢)، ولن يسع الجمع بين مخالطة الناس ظاهراً والإقبال على الله سرّاً إلا قوة النبوة فلا ينبغي أن يعتر كل ضعيف بنفسه فيطمع في ذلك، ولا يبعد أن تنتهي درجة بعض الأولياء إليه. فقد نقل عن الجنيد أنه قال: أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة والناس يظنون أنني أكلمهم. وهذا إنما يتيسر للمستغرق بحب الله استغراقاً لا يبقى لغيره فيه متسع وذلك غير منكر، ففي المشتهرين بحب الخلق من يخالط الناس ببذنه وهو لا يدري ما يقول ولا ما يقال له لفرط عشقه لمحجوبه. بل الذي دهاه ملم يشوش عليه أمراً

٣٠. الباب الثاني: في فوائد العزلة وغوائلها

(١) صحيح: حديث «كان ﷺ في أول أمره يتبتل في جبل حراء وينعزل إليه». متفق عليه من حديث عائشة نحوه: فكان يخلوا بغار حراء يتحنث فيه... الحديث، [البخاري: ٤، مسلم: ١٦٠].

(٢) صحيح: حديث «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله». أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم، [مسلم: ٢٣٨٣].

من أمور دنياه فقد يستغفره الهم بحيث يخالط الناس ولا يحس بهم ولا يسمع أصواتهم لشدة استغراقه. وأمر الآخرة أعظم عند العقلاء فلا تستحيل ذلك فيه ولكن الأولى بالأكثرين الاستعانة بالعزلة. ولذلك قيل لبعض الحكماء: ما الذي أرادوا بالخلوة واختيار العزلة؟ فقال: يستدعون بذلك دوام الفكرة وتثبت العلوم في قلوبهم ليحيوا حياة طيبة ويدوقوا حلاوة المعرفة. وقيل لبعض الرهبان: ما أصبرك على الوحدة فقال: ما أنا وحدي أنا جليس الله تعالى إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه وإذا شئت أن أناجيه صليت. وقيل لبعض الحكماء: إلى أي شيء أفضى بكم الزهد والخلوة؟ فقال: إلى الأنس بالله. وقال سفيان بن عيينة: لقيت إبراهيم ابن أدهم رحمه الله في بلاد الشام فقلت له: يا إبراهيم تركت خراسان؟ فقال: ما تهنأت بالعيش إلا ههنا أفرّ بديني من شاهق إلى شاهق، فمن يراني يقول موسوس أو حمال أو ملاح. وقيل لغزوان الرقاشي: هبك لا تضحك فما يمنعك من مجالسة إخوانك؟ قال: إني أصيب راحة قلبي في مجالسة من عنده حاجتي. وقيل للحسن: يا أبا سعيد ههنا رجل لم نره قط جالسًا إلا وحده خلف سارية. فقال الحسن: إذا رأيتموني فأخبروني به؛ فنظروا إليه ذات يوم فقالوا للحسن: هذا الرجل الذي أخبرناك به وأشاروا إليه؛ فمضى إليه الحسن وقال له: يا عبد الله أراك قد حبيت إليك العزلة فما يمنعك من مجالسة الناس؟ فقال: أمر شغلني عن الناس، قال: فما يمنعك أن تأتي هذا الرجل الذي يقال له الحسن فتجلس إليه؟ فقال: أمر شغلني عن الناس، وعن الحسن، فقال له الحسن: وما ذاك الشغل يرحمك الله؟ فقال: إني أصبح وأمسي بين نعمة وذنوب فرأيت أن أشغل نفسي بشكر الله تعالى على النعمة والاستغفار من الذنب فقال له الحسن: أنت يا عبد الله أفقه عندي ومن الحسن فالزم ما أنت عليه. وقيل: بينما أويس القرني جالس إذ أتاه هرم بن حيان فقال له أويس: ما جاء بك؟ قال: جئت لأنس بك، فقال أويس: ما كنت أرى أن أحدًا يعرف ربه فيأنس بغيره؛ وقال الفضيل: إذا رأيت الليل مقبلًا فرحت به وقلت أخلو بربي، وإذا رأيت الصبح أدركني استرجعت كراهية لقاء الناس وأن يجيئني من يشغلني عن ربي. وقال عبد الله بن زيد: طوبى لمن عاش في الدنيا وعاش في الآخرة، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: يناجي الله في الدنيا ويجاوره في الآخرة. وقال ذو النون المصري: سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمناجاة ربه. وقال مالك بن دينار: من لم يأنس بمحادثة الله عز وجل عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه وعمي قلبه وضيع عمره. وقال ابن المبارك: ما أحب حال من انقطع إلى الله تعالى ويروى عن بعض الصالحين أنه قال: بينما أنا أسير في بعض بلاد الشام إذا أنا بعباد خارج من بعض تلك الجبال فلما نظر إليّ تنحى إلى أصل شجرة وتستر بها فقلت: سبحان الله تبخل عليّ بالنظر إليك؟ فقال: هذا إني أقمت في هذا الجبل دهرًا طويلًا أعالج قلبي في الصبر عن الدنيا وأهلها فطال في ذلك تعبي وفني فيه عمري فسألت الله تعالى أن لا يجعل حظي من أيامي في مجاهدة قلبي، فسكنه الله عن الاضطراب

وألفه الوحدة والانفراد، فلما نظرت إليك خفت أن أقع في الأمر الأول فأليك عني فإني أعوذ من شرك برب العارفين وحبيب القانتين، ثم صاح: واغماه من طول المكث في الدنيا، ثم حوّل وجهه عني، ثم نفض يديه وقال: إليك عني يا دنيا لغيري فتزيني وأهلك فغري، ثم قال: سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخدمة وحلاوة الانقطاع إليه ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور الحسان، وجمع همهم في ذكره فلا شيء ألد عندهم من مناجاته. ثم مضى وهو يقول: قدوس قدوس. فإذا في الخلوة أنس بذكر الله واستكثار من معرفة الله وفي مثل ذلك قيل:

وإني لأستغشي وما بي غشوة لعلّ خيالاً منك يلقي خيالها
وأخرج من بين الجلوس لعلني أحدث عنك النفس بالسرّ خالها

ولذلك قال بعض الحكماء: إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخلوّ ذاته عن الفضيلة فيكثر حينئذ ملاقة الناس ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الواحدة ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم والحكمة. وقد قيل: الاستئناس من علامات الإفلاس فإذا هذه فائدة جزيلة ولكن في حق بعض الخواص ومن يتيسر له بدوام الذكر الأنس بالله أو بدوام الفكر التحقق في معرفة الله فالتجرد له أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة، فإن غاية العبادات وثمرتها المعاملات أن يموت الإنسان محباً لله عارفاً بالله ولا محبة إلا بالأنس الحاصل بدوام الذكر ولا معرفة إلا بدوام الفكر. وفراغ القلب شرط في كل واحد منهما ولا فراغ مع المخالطة.

الفائدة الثانية:

التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة وهي أربعة: الغيبة والنميمة، والرياء والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومشاركة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا. أما الغيبة، فإذا عرفت من كتاب آفات اللسان من ربح المهلكات وجوهها عرفت أن التحرز عنها مع المخالطة عظيم لا ينجو منها إلا الصديقون. فإن عادة الناس كافة التضمض بأعراض الناس والتفكك بها والتنفل بحلاوتها وهي طعمتهم ولذتهم وإليها يستروحون من وحشتهم في الخلوة. فإن خالطتهم ووافقهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى، وإن سكت كنت شريكاً، والمستمع أحد المغتابين، وإن أنكرت أبغضوك وتركوا ذلك المغتاب فازدادوا غيبة إلى غيبة، وربما زادوا على الغيبة وانتهوا إلى الاستخفاف والشتم.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فهو من أصول الدين وهو واجب. كما سيأتي بيانه في آخر هذا الربع. ومن خالط الناس فلا يخلو عن مشاهدة المنكرات فإن سكت عصي الله به، وإن أنكرت تعرض لأنواع من الضرر إذ ربما يجره طلب الخلاص عنها إلى معاصي هي

أكبر مما نهى عنه ابتداء. وفي العزلة خلاص من هذا فإن الأمر في إهماله شديد والقيام به شاق. وقد قام أبو بكر رضي الله عنه خطيباً وقال: «أبها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإنكم تضعونها في غير موضعها وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا رَأَى النَّاسُ الْمُتَنَكِّرَ فَلَمْ يُعَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يُعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ»^(١)، وقد قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ حَتَّى يَقُولَ لَهُ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُتَنَكِّرَ أَنْ تُنْكِرَهُ؟ فَإِذَا لَقِيَ اللَّهَ لَعَنَ اللَّهَ لِعَبْدٍ حُجَّتَهُ قَالَ: يَا رَبِّ رَجَوْتُكَ وَخِيفْتُ النَّاسَ»^(٢)، وهذا إذا خاف من ضرب أو أمر لا يطاق. ومعرفة حدود ذلك مشكلة وفيه خطر. وفي العزلة خلاص، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إثارة للخصومات وتحريك لغوائل الصدور كما قيل:

وكم سقت في آثاركم من نصيحة وقد يستفيد البغضة المنتصِّح

ومن جرب الأمر بالمعروف ندم عليه غالباً فإنه كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمه فيوشك أن يسقط عليه؛ فإذا سقط عليه يقول يا ليتني تركته مائلاً.

نعم لو وجد أعواناً أمسكوا الحائط حتى يحكمه بدعامة لاستقام وأنت اليوم لا تجد الأعوان فدعهم وانج بنفسك.

وأما الرياء؛ فهو الداء العضال الذي يعسر على الأبدال والأوتاد والاحتراز عنه. وكل من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فيه وهلك كما هلكوا. وأقل ما يلزم فيه النفاق فإنك إن خالطت متعادين ولم تلق كل واحد منهما بوجه يوافقه صرت بغيضاً إليهما جميعاً، وإن جاملتها كنت من شرار الناس. وقال ﷺ: «تَجِدُونَ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ يَأْتِي هُوَ لَآءٍ بَوَّجِهِ وَهُوَ لَآءٍ بَوَّجِهِ»^(٣)، وقال عليه السلام: «إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ يَأْتِي هُوَ لَآءٍ بَوَّجِهِ وَهُوَ لَآءٍ بَوَّجِهِ»^(٤)، وأقل ما يجب في مخالطة الناس إظهار الشوق والمبالغة فيه ولا يخلو ذلك عن كذب إما في الأصل وإما في الزيادة، وإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال بقولك: كيف أنت؟ وكيف أهلك؟ وأنت في الباطن فارغ القلب من همومه،

(١) صحيح: حديث أبي بكر إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإنكم تضعونها في غير موضعها وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول «إِذَا رَأَى النَّاسَ الْمُتَنَكِّرَ فَلَمْ يُعَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يُعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ». أخرجه أصحاب السنن. قال الترمذي: حسن صحيح، [أبو داود: ٤٣٣٨، الترمذي: ٢١٦٨، ابن ماجه: ٤٠٠٥، انظر صحيح الترغيب: ٢٣١٧].

(٢) صحيح: حديث «إِنَّ اللَّهَ لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ حَتَّى يَقُولَ لَهُ مَا مَنَعَكَ إِذَا رَأَيْتَ الْمُتَنَكِّرَ أَنْ تُنْكِرَهُ فَإِذَا لَقِيَ اللَّهَ لَعَنَ اللَّهَ لِعَبْدٍ حُجَّتَهُ قَالَ يَا رَبِّ رَجَوْتُكَ وَخِيفْتُ النَّاسَ». أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد، [ابن ماجه: ٤٠١٧، انظر صحيح الجامع: ١٨١٨].

(٣) صحيح: حديث «تَجِدُونَ مِنْ شَرِّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ». متفق عليه من حديث أبي هريرة، [البخاري: ٣٤٩٤، مسلم: ٢٥٢٦].

(٤) حديث «إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وهو الذي قبله، [بنحو الحديث السابق].

وهذا نفاق محض. قال سري: لو دخل أخ لي فسويت لحيتي بيدي لدخوله لخشيت أن أكتب في جريدة المنافقين. وكان الفضيل جالسًا وحده في المسجد الحرام فجاء إليه أخ له فقال له: ما جاء بك؟ قال: المؤمنة يا أبا علي فقال: هي والله بالمواحشة أشبه هل تريد إلا أن تتزين لي وأتزين لك وتكذب لي وأكذب لك؟ إما أن تقوم عني أو أقوم عنك. وقال بعض العلماء: ما أحب الله عبدًا إلا أحب أن لا يشعر به. ودخل طاوس على الخليفة هشام فقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب عليه وقال: لم لم تخاطبني بأمر المؤمنين؟ فقال: لأن جميع المسلمين ما اتفقوا على خلافتك فخشيت أن أكون كاذبًا. فمن أمكنه أن يحترز هذا الاحتراز فليخالط الناس وإلا فليرض بإثبات اسمه في جريدة المنافقين. فقد كان السلف يتلاقون ويحترزون في قولهم كيف أصبحت؟ وكيف أمسيت؟ وكيف أنت؟ وكيف حالك؟ وفي الجواب عنه. فكان سؤالهم عن أحوال الدين لا عن أحوال الدنيا. قال حاتم الأصم لحامد اللفاف: كيف أنت في نفسك؟ قال: سالم معافى. فكره حاتم جوابه وقال: يا حامد السلامة من وراء الصراط والعافية في الجنة. وكان إذا قيل لعيسى عليه السلام: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت لا أملك تقديم ما أرجو ولا أستطيع دفع ما أحاذر وأصبحت مرتهنا بعملتي والخير كله في يد غيبي ولا فقير أفقر مني وكان الربيع بن خثيم إذا قيل له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من ضعفاء مذنبين نستوفي أرزاقنا ومنتظر آجالنا.

وكان أبو الدرداء إذا قيل له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بخير إن نجوت من النار. وكان سفيان الثوري إذا قيل له: كيف أصبحت؟ يقول: أصبحت أشكر ذا إلى ذا وأذم ذا إلى ذا وأفر من ذا إلى ذا، وقيل لأويس القرني: كيف أصبحت؟ قال: كيف يصبح رجل إذا أمسى لا يدري أنه يصبح وإذا أصبح لا يدري أنه يمسي؟ وقيل لمالك بن دينار: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت في عمر ينقص وذنوب تزيد. وقيل لبعض الحكماء: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت لا أرضى حياتي لمماتي ولا نفسي لربي. وقيل لحكيم: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أكل رزق ربي وأطيع عدوّه إبليس. وقيل لمحمد بن واسع: كيف أصبحت؟ قال: ما ظنك برجل يرتحل كل يوم إلى الآخرة مرحلة. وقيل لحامد اللفاف: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أشتهي عافية يوم إلى الليل، فقيل له: ألسنت في عافية في كل الأيام؟ فقال: العافية يوم لا أعصي الله تعالى فيه. وقيل لرجل وهو يوجد بنفسه: ما حالك؟ فقال: وما حال من يريد سفرًا بعيدًا بلا زاد ويدخل قبرًا موحشًا بلا مؤنس وينطلق إلى ملك عدل بلا حجة. وقيل لحسان بن أبي سنان: ما حالك؟ قال: ما حال من يموت ثم يبعث ثم يحاسب. وقال ابن سيرين لرجل: كيف حالك؟ فقال: وما حال من عليه خمسمائة درهم دينًا وهو معيل؟ - ذو عيال - فدخل ابن سيرين منزله فأخرج له ألف درهم فدفعها إليه وقال: خمسمائة اقض بها دينك وخمسمائة عد بها علي نفسك وعيالك - ولم يكن عنده غيرها - ثم قال: والله لا أسأل أحدًا عن حاله أبدًا. وإنما فعل

ذلك لأنه خشي أن يكون سؤاله من غير اهتمام بأمره فيكون بذلك مرثيًا منافقًا. فقد كان سؤالهم عن أمور الدين وأحوال القلب في معاملة الله وإن سألوا عن أمور الدنيا فعن اهتمام وعزم على القيام بما يظهر لهم من الحاجة. وقال بعضهم: إني لأعرف أقوامًا كانوا لا يتلاقون ولو حكم أحدهم على صاحبه بجميع ما يملكه لم يمنعه، وأرى الآن أقوامًا يتلاقون ويتساءلون حتى عن الدجاجة في البيت. ولو انبسط أحدهم لحبة من مال صاحبه لمنعه فهل هذا إلا مجرد الرياء والنفاق؟ وآية ذلك أنك ترى هذا يقول كيف أنت؟ ويقول الآخر كيف أنت؟ فالسائل لا ينتظر الجواب والمسؤول يشتغل بالسؤال ولا يجيب، وذلك لمعرفة فهم بأن ذلك عن رياء وتكلف. ولعل القلوب لا تخلو عن ضغائن وأحقاد والألسنة تنطق بالسؤال. قال الحسن: إنما كانوا يقولون السلام عليكم، إذا سلمت والله القلوب، وأما الآن: فكيف أصبحت عافاك الله؟ كيف أنت أصلحك الله؟ فإن أخذنا بقولهم كانت بدعة لا كرامة فإن شأؤوا غصبوا علينا، وإن شأؤوا لا. وإنما قال ذلك لأن البداية بقولك: كيف أصبحت بدعة. وقال رجل لأبي بكر بن عياش: كيف أصبحت؟ فما أجابه. وقال دعونا من هذه البدعة. وقال: إنما حدث هذا في زمان الطاعون الذي كان يدعى طاعون عمواس بالشام من الموت الذريع، كان الرجل يلقاه أخوه غدوة فيقول كيف أصبحت من الطاعون؟ ويلقاه عشية فيقول: كيف أمسيت؟ والمقصود أن الالتقاء في غالب العادات ليس يخلو من أنواع من التصنع والرياء والنفاق، وكل ذلك مذموم، بعضه محظور وبعضه مكروه. وفي العزلة الخلاص من ذلك، فإن من لقي الخلق ولم يخالفهم بأخلاقهم مقتوه واستثقلوه واغتابوه وتشمروا لإيذائه فيذهب دينهم فيه ويذهب دينه ودنياه في الانتقام منهم.

وأما مسارقة الطبع مما يشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم؛ فهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلًا عن الغافلين، فلا يجالس الإنسان فاسقًا مدة مع كونه منكرًا عليه في باطنه إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لأدرك بينهما تفرقة في النفرة عن الفساد واستثقاله إذ يصير للفساد بكثرة المشاهدة هيئًا على الطبع فيسقط وقعه واستعظامه له، وإنما الوازع عنه شدة وقعه في القلب فإذا صار مستصغرًا بطول المشاهدة أوشك أن تنحل القوة الوازعة ويدعن الطبع للميل إليه أو لما دونه. ومهما طالت مشاهدته للكبائر من غيره استحقر الصغائر من نفسه: ولذلك يزدري الناظر إلى الأغنياء نعمة الله عليه فتؤثر مجالستهم في أن يستصغر ما عنده وتؤثر مجالسة الفقراء في استعظام ما أتبع له من النعم. وكذلك النظر إلى المطيعين والعصاة هذا تأثيره في الطبع من يقصر نظره على ملاحظة أحوال الصحابة والتابعين في العبادة والتنزه عن الدنيا، فلا يزال ينظر إلى نفسه بعين الاستصغار وإلى عبادته بعين الاستحقر، وما دام يرى نفسه مقصرًا فلا يخلو عن داعية الاجتهاد رغبة في الاستكمال واستتمامًا للاقتداء.. ومن نظر إلى الأحوال الغالبة على أهل الزمان وإعراضهم عن الله وإقبالهم على الدنيا واعتيادهم

المعاصي استعظم أمر نفسه بأدنى رغبة في الخير يصادفها في قلبه وذلك هو الهلاك. ويكفي في تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلاً عن مشاهدته. وبهذه الدقيقة يعرف سر قوله ﷺ «عِنْدَ ذِكْرِ الصَّالِحِينَ تَنْزِلُ الرَّحْمَةُ»^(١)، وإنما الرحمة دخول الجنة ولقاء الله وليس ينزل عند الذكر عين ذلك، ولكن سببه وهو انبعاث الرغبة من القلب وحركة الحرص على الاقتداء بهم والاستنكاف عما هو ملابس له من القصور والتقصير.

ومبدأ الرحمة فعل الخير ومبدأ فعل الخير الرغبة ومبدأ الرغبة ذكر أحوال الصالحين، فهذا معنى نزول الرحمة.

والمفهوم من فحوى هذا الكلام عند الفطن كالمفهوم من عكسه، وهو أن عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة لأن كثرة ذكرهم تهون على الطبع أمر المعاصي، واللعنة هي البعد. ومبدأ البعد من الله هو المعاصي، والإعراض عن الله بالإقبال على الحظوظ العاجلة والشهوات الحاضرة لا على الوجه المشروع. ومبدأ المعاصي سقوط ثقلها وتفاحشها عن القلب. ومبدأ سقوط الثقل وقوع الأنس بها بكثرة السماع. إذا كان هذا حال ذكر الصالحين والفاسقين فما ظنك بمشاهدتهم؟ بل قد صرح بذلك رسول الله ﷺ حيث قال: «مَثَلُ الْجَلِيسِ السُّوءِ كَمَثَلِ الْكَبِيرِ إِنْ لَمْ يَحْرِقْكَ بِشَرِّهِ عَلِقَ بِكَ مِنْ رِيحِهِ»^(٢)، فكما أن الريح يعلق بالثوب ولا يشعر به، فكذلك يسهل الفساد على القلب وهو لا يشعر به. وقال ﷺ: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ مَثَلُ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِنْ لَمْ يَهَبْ لَكَ مِنْهُ تَجِدْ رِيحَهُ» ولهذا أقول من عرف من عالم زلة حرم عليه حكايتها لعلتين، إحداهما: أنها غيبة، والثانية وهي أعظمهما. أن حكايتها تهون على المستمعين أمر تلك الزلة، ويسقط من قلوبهم استعظامهم الإقدام عليها فيكون ذلك سبباً لتهوين تلك المعصية، فإنه مهما وقع فيها فاستنكر ذلك دفع الاستنكار وقال: كيف يستبعد هذا منا وكلنا مضطرون إلى مثله حتى العلماء والعباد؟ ولو اعتقد أن مثل ذلك لا يقدم عليه عالم ولا يتعاطاه موفق معتبر لشق عليه الإقدام، فكم من شخص يتكالب على الدنيا ويحرص على جمعها ويتهالك على حب الرئاسة وتزيينها ويهون على نفسه قبحها ويزعم أن الصحابة رضي الله عنهم لم ينزهوا أنفسهم عن حب الرئاسة؟ وربما يستشهد عليه بقتال علي ومعاوية ويخمن في نفسه أن ذلك لم يكن لطلب الحق بل لطلب الرئاسة، فهذا الاعتقاد خطأ يهون عليه أمر الرئاسة ولوازها من المعاصي. والطبع اللئيم يميل إلى اتباع الهفوات والإعراض عن الحسنات بل إلى تقدير الهفوة فيما لا هفوة فيه بالتنزيل على مقتضى الشهوة ليتعلل به وهو من

(١) حديث «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة». ليس له أصل في الحديث المرفوع وإنما هو من قول سفيان ابن عيينة كذا رواه ابن الجوزي في مقدمة صفوة الصفوة.

(٢) صحيح: حديث «مثل الجليس السوء كمثل الكبير إن لم يحرق بشره علق بك من ريحه». متفق عليه من حديث أبي موسى، [البخاري: ٢١٠١، مسلم: ٢٦٢٨].

دقائق مكائد الشيطان، ولذلك وصف الله المرغمين للشيطان فيها بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨] وضرب ﷺ لذلك مثلاً وقال: «مَثَلُ الَّذِي يَجْلِسُ يَسْتَمِعُ الْحِكْمَةَ ثُمَّ لَا يَعْمَلُ إِلَّا بِشَرِّ مَا يَسْتَمِعُ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى رَاعِيًا فَقَالَ لَهُ: يَا رَاعِي اجْرُزْ لِي شَاةً مِنْ غَنَمِكَ فَقَالَ: أَذْهَبُ فَخُذْ خَيْرَ شَاةٍ فِيهَا فَذَهَبَ فَأَخَذَ بِأُذُنِ كَلْبِ الْغَنَمِ»^(١)، وكل من ينقل هفوات الأئمة فهذا مثاله أيضاً.

ومما يدل على سقوط وقع الشيء عن القلب بسبب تكرره ومشاهدته أن أكثر الناس إذا رأوا مسلماً أفطر في نهار رمضان استبعدوا ذلك منه استبعاداً يكاد يفضي إلى اعتقادهم كفره، وقد يشاهدون من يخرج الصلوات عن أوقاتها ولا تنفر عنه طباعهم كنفرتهم عن تأخير الصوم، مع أن صلاة واحدة يقتضي تركها الكفر عند قوم وحز الرقبة عند قوم: وترك صوم رمضان كله لا يقتضيه ولا سبب له إلا أن الصلاة تتكرر والتساهل فيها مما يكثر فيسقط وقعها بالمشاهدة عن القلب. ولذلك لو لبس الفقيه ثوباً من حرير أو خاتماً من ذهب أو شرب من إناء فضة استبعدته النفوس واشتد إنكارها، وقد يشاهد في مجلس طويل لا يتكلم إلا بما هو اغتياب للناس ولا يستبعد منه ذلك. والغيبة أشد من الزنى، فكيف لا تكون أشد من لبس الحرير؟ ولكن كثرة سماع الغيبة ومشاهدة المغتابين أسقط وقعها عن القلوب وهون على النفس أمرها، فتفطن لهذه الدقائق وفرّ من الناس فرارك من الأسد لأنك لا تشاهد منهم إلا ما يزيد في حرصك على الدنيا وغفلتك عن الآخرة ويهون عليك المعصية ويضعف رغبتك في الطاعة. فإن وجدت جليساً يذكرك الله رؤيته وسيرته فالزمه ولا تفارقه واغتنمه ولا تستحقره فإنها غنيمة العاقل وضالة المؤمن. وتحقق أن المجلس الصالح خير من الوحدة وأن الوحدة خير من المجلس السوء. ومهما فهمت هذه المعاني ولاحظت طبعك والتفت إلى حال من أردت مخالطته لم يخف عليك أن الأولى التباعد بالعزلة أو التقرب إليه بالخلطة. وإياك أن تحكم مطلقاً على العزلة أو الخلطة بأن إحدهما أولى إذ كل مفصل فإطلاق القول فيه بلا أو نعم خلف من القول مجحض ولا حق في المفصل إلا التفصيل.

الفائدة الثالثة:

الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها وقلما تخلو البلاد عن تعصبات وفتن وخصومات، فالمعتزل عنهم في سلامة منها. قال عبد الله بن عمرو بن العاص: لما ذكر رسول الله ﷺ الفتن ووصفها وقال: «إِذَا رَأَيْتَ

(١) حديث «مثل الذي يجلس يستمع الحكمة ثم لا يعمل إلا بشر ما يستمع كمثل رجل أتى راعياً فقال له: يا راعي اجزر لي شاة من غنمك فقال اذهب فخذ خير شاة فيها فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم». أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف، [ابن ماجه: ٤١٧٢، انظر السلسلة الضعيفة: ١٧٦١].

النَّاسَ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ وَكَانُوا هَكَذَا - وشبك بين أصابعه -، قلت: فما تأمرني، فقال: «الزَّمْ بَيْتَكَ وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَخُذْ مَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تُنْكِرُ وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ الْخَاصَّةِ وَدَعْ عَنكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ»^(١)، وروى أبو سعيد الخدري أنه ﷺ قال: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمًا يَتَّبِعُ بِهَا شَعْفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ مِنْ شَاهِقِ إِلَى شَاهِقِ»^(٢)، وروى عبد الله بن مسعود أنه ﷺ قال: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَسْلُمُ لِذِي دِينٍ دِينُهُ إِلَّا مَنْ فَرَّ بِدِينِهِ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَى قَرْيَةٍ وَمِنْ شَاهِقِ إِلَى شَاهِقِ وَمِنْ جُحْرِ إِلَى جُحْرِ كَالْتَّغْلِبِ الَّذِي يَزُوعُ» قيل له: ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال: «إِذَا لَمْ تَنْلِ الْمَعِيشَةَ إِلَّا بِمَعَاصِي اللَّهِ تَعَالَى فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الزَّمَانُ حَلَّتِ الْعَزُوبَةُ» قالوا: وكيف يا رسول الله وقد أمرتنا بالتزويج؟ قال: «إِذَا كَانَ ذَلِكَ الزَّمَانُ كَانَ هَلَاكُ الرَّجُلِ عَلَى يَدِ أَبَوَيْهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبَوَانِ فَعَلَى يَدَيْ زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَعَلَى يَدَيْ قَرَابَتِهِ» قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «يُعَيِّرُونَهُ بِضِيْقِ الْيَدِ فَيَتَكَلَّفُ مَا لَا يَطِيقُ حَتَّى يُورِدَهُ ذَلِكَ مَوَارِدَ الْهَلَكَةِ»^(٣)، وهذا الحديث وإن كان في العزوبة فالعزلة مفهومة منه إذ لا يستغني المتأهل عن المعيشة والمخالطة ثم لا ينال المعيشة إلا بمعصية الله تعالى، ولست أقول: هذا أوان ذلك الزمان فلقد كان هذا بأعصار قبل هذا العصر، ولأجله قال سفيان: والله لقد حلت العزلة. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ذكر رسول الله ﷺ أيام الفتنة وأيام الهرج قلت: وما الهرج؟ قال: «حِينَ لَا يَأْمَنُ الرَّجُلُ جَلِيسَهُ» قلت: فبم تأمرني إن أدركت ذلك الزمان؟ قال: «كُفَّ نَفْسَكَ وَيَدَكَ وَادْخُلْ دَارَكَ» قال: قلت يا رسول الله أرأيت إن دخل علي داري؟ قال: «فَادْخُلْ بَيْتَكَ» ، قلت: فإن دخل علي بيتي؟ قال «فَادْخُلْ مَسْجِدَكَ وَاصْنَعْ هَكَذَا» وقبض على الكوع «وَقُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ حَتَّى تَمُوتَ»^(٤)، وقال

(١) حسن صحيح: حديث عبد الله بن عمرو بن العاص «إذا رأيت الناس مرجت عهودهم وخفت أماناتهم وكانوا هكذا - وشبك بين أصابعه -، قلت: فما تأمرني؟ فقال «الزم بيتك واملك عليك لسانك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وعليك بأمر الخاصة ودع عنك أمر العامة». أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بإسناد حسن، [أبو داود: ٤٣٤٣، انظر صحيح الترغيب: ٢٧٤٤].

(٢) صحيح: حديث أبي سعيد الخدري «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن». رواه البخاري، [البخاري: ١٩].

(٣) منكر: حديث ابن مسعود «سأيتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاق إلى شاق». تقدم في النكاح، [انظر السلسلة الضعيفة: ٣٢٧٠].

(٤) صحيح: حديث ابن مسعود «ذكر رسول الله ﷺ أيام الفتنة وأيام الهرج قلت: وما الهرج؟ قال «حين لا يأمن الرجل جليسه» قلت: فبم تأمرني إن أدركت ذلك الزمان؟ قال «كف نفسك ويدك وادخل دارك» قال: قلت يا رسول الله أرأيت إن دخلت علي داري؟ قال: «فادخل بيتك» قلت: فإن دخل علي بيتي؟ قال «فادخل مسجدك واصنع هكذا» وقبض على الكوع «وقل ربي الله حتى تموت». أخرجه أبو داود مختصراً والخطابي في العزلة بتمامه وفي إسناده عند الخطابي انقطاع ووصله أبو داود بزيادة رجل اسمه سالم يحتاج إلى معرفته، [الحديث بتمامه، انظر السلسلة الصحيحة: ٣٢٥٤، وهو عند أبي داود: ٤٢٥٦ بنحوه].

سعد - لما دعي إلى الخروج أيام معاوية - لا... إلا أن تعطوني شيئاً له عينان بصيرتان ولسان ينطق بالكافر فأقتله وبالمؤمن فأكف عنه، وقال: مثلنا ومثلكم كمثل قوم كانوا على محجة بيضاء فبينما هم كذلك يسيرون إذ هاجت ريح عجاجة فضلوا الطريق فالتبس عليهم؛ فقال بعضهم: الطريق ذات اليمين فأخذوا فيها فتاهوا وضلوا، وقال بعضهم: ذات الشمال فأخذوا فيها فتاهوا وضلوا، وأناخ آخرون وتوقفوا حتى ذهب الريح وتبينت الطريق فسافروا. فاعتزل سعد وجماعة معه فارقوا الفتن ولم يخالطوا إلا بعد زوال الفتن. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه لما بلغه أن الحسين رضي الله عنه توجه إلى العراق تبعه فلحقه على مسيرة ثلاثة أيام فقال له: أين تريد؟ فقال: العراق. فإذا معه طوامير وكتب؛ فقال: هذه كتبهم وبيعتهم فقال: لا تنظر إلى كتبهم ولا تأتهم؛ فأبى، فقال: إني أحدثك حديثاً؛ جبريل أتى النبي ﷺ فخبره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة على الدنيا وإنك بضعة من رسول الله ﷺ والله لا يليها أحد منكم أبداً وما صرفها عنكم إلا للذي هو خير لكم، فأبى أن يرجع، فاعتنقه ابن عمر وبكى وقال: أستودعك الله من قتيل أو أسير^(١). وكان في الصحابة عشرة آلاف فما خف أيام الفتنة أكثر من أربعين رجلاً. وجلس طاوس في بيته فقيل له في ذلك فقال: فساد الزمان وحيف الأئمة. ولما بنى عروة قصره بالعقيق ولزمه قيل له: لزمتم القصر وتركت مسجد رسول الله ﷺ؟ فقال: رأيت مساجدكم لاهية وأسواقكم لاغية والفاحشة في فجاجكم عالية وفيما هناك عما أنتم فيه عافية. فإذا الحذر من الخصومات، ومثارات الفتن إحدى فوائد العزلة.

الفائدة الرابعة:

الخلاص من شر الناس فإنهم يؤذونك مرة بالغبية ومرة بسوء الظن والتهمة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها، وتارة بالنميمة أو الكذب وربما يرون منك من الأعمال أو الأقوال ما لا تبلغ عقولهم كنهه فيتخذون ذلك ذخيرة عندهم يدخرونها لوقت تظهر فرصة للشهر، فإذا اعتزلتهم استغنييت من التحفظ عن جميع ذلك. ولذلك قال بعض الحكماء لغيره: أعلمك بيتين خير من عشرة آلاف درهم؟ قال: ما هما؟ قال:

اخفض الصوت إن نطقت بليل والتفت بالنهار قبل المقال

(١) ضعيف: حديث ابن عمر: أنه لما بلغه أن الحسين رضي الله عنه توجه إلى العراق تبعه فلحقه على مسيرة ثلاثة أيام فقال له: أين تريد؟ فقال: العراق فإذا معه طوامير وكتب؛ فقال: هذه كتبهم وبيعتهم فقال: لا تنظر إلى كتبهم ولا تأتهم، فأبى، فقال: إني أحدثك حديثاً؛ جبريل أتى النبي ﷺ فخبره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة على الدنيا وإنك بضعة من رسول الله ﷺ والله لا يليها أحد منكم أبداً وما صرفها عنكم إلا للذي هو خير لكم، فأبى أن يرجع، فاعتنقه ابن عمر وبكى وقال: أستودعك الله من قتيل أو أسير. رواه الطبراني مقتصرًا على المرفوع رواه في الأوسط بذكر قصة الحسين مختصرة ولم يقل: على مسيرة ثلاثة أيام. وكذا رواه البزار بنحوه وإسنادهما حسن، [المرفوع منه عند ابن ماجه: ٤٠٨٢، وانظر ضعيف ابن ماجه]

ليسَ للقول رجعةً حين يبدو بقبيح يكون أو بجمال
ولا شك أن من اختلط بالناس وشاركهم في أعمالهم لا ينفك من حاسد وعدو يسىء الظن
به ويتوهم أنه يستعد لمعاداته ونصب المكيدة عليه وتدسيس غائلة وراءه فالناس مهما اشتد
حرصهم على أمر ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُوَّ فَاذْرَهُمْ﴾ [المنافقون: ٤] وقد اشتد حرصهم
على الدنيا فلا يظنون بغيرهم إلا الحرص عليها.

قال المتنبي:

إذا ساء ففعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقولِ عُدَاتِهِ فأصبح في ليلٍ من الشكِّ مُظْلَمٍ
وقد قيل: معاشرة الأشرار تورث سوء الظن بالأبرار. وأنواع الشر الذي يلقيه الإنسان من
معارفه وممن يختلط به كثيرة، ولسنا نطول بتفصيلها ففيما ذكرناه إشارة إلى مجامعها، وفي
العزلة خلاص من جميعها. وإلى هذا أشار الأكثر ممن اختار العزلة. فقال أبو الدرداء: أخبر
تقله، يروى مرفوعًا. وقال الشاعر:

مَنْ حَمِدَ النَّاسَ وَلَمْ يَبْلِهِمْ ثُمَّ بَلَاهُمْ ذَمٌّ مِنْ يَحْمَدُ
وصار بالوحدة مستأنسًا يوحشه الأقربُّ والأبعدُ

وقال عمر رضي الله عنه: في العزلة راحة من القرين السوء. وقيل لعبد الله بن الزبير: ألا
تأتي المدينة؟ فقال: ما بقي فيها إلا حاسد نعمة أو فرح بنقمة. وقال ابن السماك: كتب
صاحب لنا، أما بعد: فإن الناس كانوا دواء يتداوى به فصاروا داء ولا دواء له ففرّ منهم فرارك
من الأسد. وكان بعض الأعراب يلزم شجرًا ويقول: هو نديم فيه ثلاث خصال، إن سمع مني
لم ينم علي، وإن تفلت في وجهه احتمل مني، وإن عربت عليه لم يغضب، فسمع الرشيد
ذلك فقال: زهدني في الندماء. وكان بعضهم قد لزم الدفاتر والمقابر فقيل له ذلك فقال: لم أر
أسلم من وحدة ولا أوعظ من قبر، ولا جليسا أمتع من دفتر، وقال الحسن رضي الله عنه:
أردت الحج فسمع ثابت البناني بذلك - وكان أيضًا من أولياء الله - فقال: بلغني أنك تريد
الحج فأحببت أن أصحبك، فقال له الحسن: ويحك دعنا نتعاشر بستر الله علينا إنني أخاف أن
نصطحب فيرى بعضنا من بعض ما تنماقت عليه. وهذه إشارة إلى فائدة أخرى في العزلة وهو
بقاء الستر على الدين والمروءة والأخلاق والفقر وسائر العورات. وقد مدح الله سبحانه
المستترين فقال: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] وقال الشاعر:

ولا عار إن زالت عن الحرِّ نعمة ولكنَّ عارًا أن يزول التجملُ

ولا يخلو الإنسان في دينه ودنياه وأخلاقه وأفعاله عن عورات الأولى في الدين والدنيا سترها
ولا تبقى السلامة مع انكشافها. وقال أبو الدرداء: كان الناس ورقًا لا شوك فيه فالناس اليوم
شوك لا ورق فيه. إذا كان هذا حكم زمانه وهو في أواخر القرن الأول فلا ينبغي أن يشك في

أن الأخير شر. وقال سفيان بن عيينة: قال لي سفيان الثوري - في اليقظة في حياته وفي المنام بعد وفاته - أقلل من معرفة الناس فإن التخلص منهم شديد ولا أحسب أنني رأيت ما أكره إلا ممن عرفت.

وقال بعضهم: جئت إلى مالك بن دينار وهو قاعد وحده، وإذا كلب قد وضع حنكه على ركبته. فذهبت أطرده فقال: دعه يا هذا لا يضر ولا يؤذي وهو خير من جليس السوء. وقيل لبعضهم: ما حملك على أن تعتزل الناس؟ قال: خشيت أن أسلب ديني ولا أشعر. وهذه إشارة إلى مسارقة الطبع من أخلاق القرين السوء. وقال أبو الدرداء: اتقوا الله واحذروا الناس فإنهم ما ركبوا ظهر بعير إلا أدبروه، ولا ظهر جواد إلا عقروه، ولا قلب مؤمن إلا خربوه، وقال بعضهم: أقلل المعارف فإنه أسلم لدينك وقلبك، وأخف لسقوط الحقوق عنك، لأنه كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق وعسر القيام بالجميع. وقال بعضهم: أنكر من تعرف ولا تتعرف إلى من لا تعرف.

الفائدة الضامنة:

أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عن الناس. فأما انقطاع طمع الناس عنك ففيه فوائد، فإن رضا الناس غاية لا تدرك فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى ومن أهون الحقوق وأيسرها حضور الجنائز وعبادة المريض وحضور الولائم والإملاكات، وفيها تضييع الأوقات وتعرض للآفات، ثم قد تعوق عن بعضها العوائق وتستقبل فيها المعاذير، ولا يمكن إظهار كل الأعذار فيقولون له قمت بحق فلان وقصرت في حقنا، ويصير ذلك سبب عداوة فقد قيل: من لم يعد مريضاً في وقت العيادة اشتهى موته خيفة من تخجيله إذا صح على تقصيره. ومن عمم الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه كلهم، ولو خصص استوحشوا. وتعميمهم بجميع الحقوق لا يقدر عليه المتجرد له طول الليل والنهار فكيف من له مهم يشغله في دين أو دنيا؟ قال عمرو بن العاص: كثرة الأصدقاء كثرة الغمراء، وقال ابن الرومي:

عدوك من صديقك مستفاداً فلا تستكثرن من أصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

وقال الشافعي رحمه الله: أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى الله. وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضاً فائدة جزيلة، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه وانبعث بقوة الحرص طمعه ولا يرى إلا الخيبة في أكثر الأحوال فيتأذى بذلك. ومهما اعتزل لم يشاهد، وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطعم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١] وقال ﷺ: «انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو

فَوْقَكُمْ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزِدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ»^(١)، وقال عون بن عبد الله: كنت أجالس الأغنياء فلم أزل مغموماً، كنت أرى ثوباً أحسن من ثوبي ودابة أفره من دابتي فجالست الفقراء فاسترحت. وحكي أن المزني رحمه الله خرج من باب جامع الفسطاط وقد أقبل ابن عبد الحكم في موكبه فبهره ما رأى من حسن حاله وحسن هيئته فتلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠] ثم قال بلى أصبر وأرضى، وكان فقيراً مقلماً. فالذي هو في بيته لا يتلى بمثل هذه الفتن. فإن من شاهد زينة الدنيا فيما أن يقوى دينه ويقينه فيصبر إلى أن يتجرع مرارة الصبر - وهو أمر من الصبر - أو تتبع رغبتة فيحتال في طلب الدنيا فيهلك هلاكاً مؤبداً، أما في الدنيا فبالطمع الذي يخيب في أكثر الأوقات فليس كل من يطلب الدنيا تيسر له، وأما في الآخرة فيأثاره متاع الدنيا على ذكر الله تعالى والتقرب إليه. ولذلك قال ابن الأعرابي:

إذا كان بابُ الذلِّ من جانب الغنى
سموَتْ إلى العلياءِ من جانب الفقرِ
أشار إلى أن الطمع يوجب في الحال ذلاً.
الفائدة السادسة:

الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى ومقاساة حمقهم وأخلاقهم، فإن رؤية الثقل هي العمى الأصغر. قيل للأعمش: مم عمشت عينك؟ قال: من النظر إلى الثقلاء. ويحكي أنه دخل عليه أبو حنيفة فقال في الخبر: «إِنَّ مَنْ سَلَبَ اللَّهُ كَرِيمَتَيْهِ عَوَّضَهُ اللَّهُ عَنْهُمَا مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمَا»^(٢)، فما الذي عوضك؟ فقال - في معرض المطاوعة - عوضني الله منهما أنه كفاني رؤية الثقلاء وأنت منهم. وقال ابن سيرين: سمعت رجلاً يقول نظرت إلى ثقل مرة فغشي عليّ. وقال جالينوس: لكل شيء حمى وحمى الروح النظر إلى الثقلاء. وقال الشافعي رحمه الله: ما جالست ثقل إلا وجدت الجانب الذي يليه من بدني كأنه أثقل عليّ من الجانب الآخر. وهذه الفوائد ما سوى الأوليين متعلقة بالمقاصد الدنيوية الحاضرة ولكنها أيضاً تتعلق بالدين، فإن الإنسان مهما تأذى برؤية ثقل لم يأمن أن يغتابه وأن يستنكر ما هو صنع الله، فإذا تأذى من غيره بغيبة أو سوء ظن أو محاسدة أو نميمة أو غير ذلك لم يصبر عن مكافأته. وكل ذلك يجر إلى فساد وفي العزلة سلامة عن جميع ذلك فليفهم.

(١) صحيح: حديث «انظروا إلى من هو دنوكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، [مسلم: ٢٩٦٣].
(٢) صحيح: حديث «من سلب الله كريمته عوضه عنهما ما هو خير منهما». أخرجه الطبراني بإسناد ضعيف من حديث جرير «من سلبت كريمته عوضته عنهما الجنة»، وله ولأحمد نحوه من حديث أبي أمامة بسند حسن، [أحمد: ١٣٦٠٧]، وانظر صحيح الجامع: [١٧٢٧] وللبخاري من حديث أنس «يقول الله تبارك وتعالى إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة» يريد عينيه، [البخاري: ٥٦٥٣].

آفات العزلة:

اعلم أن من المقاصد الدينية والدينية ما يستفاد بالاستعانة بالغير ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة. فكل ما يستفاد من المخالطة يفوت بالعزلة، وفواته من آفات العزلة، فانظر إلى فوائد المخالطة والدواعي إليها ما هي، وهي التعليم والتعلم، والنفع والانتفاع، والتأديب والتأدب، والاستئناس والإيناس، ونيل الثواب وإنالته في القيام بالحقوق، واعتياد التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها، فلنفصل ذلك فإنها من فوائد المخالطة وهي سبع:

الفائدة الأولى: التعليم والتعلم.

وقد ذكرنا فضلها في كتاب العلم وهما أعظم العبادات في الدنيا. ولا يتصور ذلك إلا بالمخالطة إلا أن العلوم كثيرة وعن بعضها مندوحة، وبعضها ضروري في الدنيا. فالمحتاج إلى التعلم لما هو فرض عليه عاص بالعزلة. وإن تعلم الفرض وكان لا يتأتى منه الخوض في العلوم ورأى الاشتغال بالعبادة فليعتزل. وإن كان يقدر على التبرز في علوم الشرع والعقل فالعزلة في حقه قبل التعلم غاية الخسران. ولهذا قال النخعي وغيره: تفقه ثم اعتزل فمن اعتزل قبل التعلم فهو في الأكثر مضيع أوقاته بنوم أو فكر في هوس، وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد يستوعبها، ولا ينفك في أعماله بالبدن والقلب عن أنواع من الغرور يخيب سعيه ويبطل عمله بحيث لا يدري، ولا ينفك اعتقاده في الله وصفاته عن أوهام يتوهمها ويأنس بها وعن خواطر فاسدة تعتريه فيها فيكون في أكثر أحواله ضحكة للشيطان وهو يرى نفسه من العباد. فالعلم هو أصل الدين فلا خير في عزلة العوام والجهال، أعني من لا يحسن العبادة في الخلو ولا يعرف جميع ما يلزم فيها. فمثال النفس مثال مريض يحتاج إلى طبيب متلطف يعالجه، فالمرضى الجاهل إذا خلا بنفسه عن الطبيب قبل أن يتعلم الطب تضاعف لا محالة مرضه. فلا تليق العزلة إلا بالعالم، وأما التعليم ففيه ثواب عظيم مهما صحت نية المعلم والمتعلم. ومهما كان القصد إقامة الجاه والاستكثار بالأصحاب والأتباع فهو هلاك الدين. وقد ذكرنا وجه ذلك في كتاب العلم.

وحكم العالم في هذا الزمان أن يعتزل إن أراد سلامة دينه، فإنه لا يرى مستفيدًا يطلب فائدة لدينه، بل لا طالب إلا لكلام مزخرف، يستميل به العوام في معرض الوعظ أو الجدل معقد يتوصل به إلى إفحام الأقران ويتقرب به إلى السلطان ويستعمل في معرض المنافسة والمباهاة، وأقرب علم مرغوب فيه: المذهب، ولا يطلب غالبًا إلا للتوصل إلى التقدم على الأمثال وتولي الولايات واجتلاب الأموال. فهؤلاء كلهم يقتضي الدين والحزم الاعتزال عنهم، فإن صودف طالب لله ومتقرب بالعلم إلى الله فأكبر الكبائر الاعتزال عنه وكتمان العلم منه، وهذا لا

يصادف في بلدة كبيرة أكثر من واحد أو اثنين إن صودف.

ولا ينبغي أن يفتر الإنسان بقول سفيان: تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله، فإن الفقهاء يتعلمون لغير الله ثم يرجعون إلى الله. وانظر إلى أواخر أعمار الأكثرين منهم واعتبرهم أنهم ماتوا، وهم هلكت على طلب الدنيا ومتكالبون عليها أو راغبون عنها وزاهدون فيها، وليس الخبر كالمعاينة. واعلم أن العلم الذي أشار إليه سفيان هو علم الحديث وتفسير القرآن ومعرفة سير الأنبياء والصحابة، فإن فيها التخويف والتحذير وهو سبب لإثارة الخوف من الله فإن لم يؤثر في الحال أثر في المآل.

وأما الكلام والفقهاء المجرد - الذي يتعلق بفتاوى المعاملات وفصل الخصومات - المذهب منه والخلاف لا يرد الراغب فيه للدنيا إلى الله، بل لا يزال متماديًا في حرصه إلى آخر عمره. ولعل ما أودعناه هذا الكتاب إن تعلمه المتعلم رغبة في الدنيا فيجوز أن يرخص فيه، إذ يرجي أن ينزجر به في آخر عمره فإنه مشحون بالتخويف بالله والترغيب في الآخرة والتحذير من الدنيا، وذلك مما يصادف في الأحاديث وتفسير القرآن ولا يصادف في كلام ولا في خلاف ولا في مذهب. فلا ينبغي أن يخادع الإنسان نفسه فإن المقصر العالم بتقصيره أسعد حالًا من الجاهل المغرور أو المتجاهل المغبون وكل عالم اشتد حرصه على التعليم يوشك أن يكون غرضه القبول والجاه، وحظه تلذذ النفس في الحال باستشعار الإذلال على الجهال والتكبر عليهم، فآفة العلم الخيلاء^(١) كما قال ﷺ: ولذلك حكى عن بشر أنه دفن سبعة عشر قمطرًا من كتب الأحاديث التي سمعها، وكان لا يحدث، ويقول: إني أشتهي أن أحدث فلذلك لا أحدث ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت، ولذلك قال: «حدثنا» باب من أبواب الدنيا، وإذا قال الرجل «حدثنا» وإنما يقول أوسعوا لي. وقالت رابعة العدوية لسفيان الثوري: نعم الرجل أنت لولا رغبتك في الدنيا، قال: وفيما ذا رغبت؟ قالت: في الحديث. ولذلك قال أبو سليمان الداراني: من تزوج أو طلب الحديث أو اشتغل بالسفر فقد ركن إلى الدنيا. فهذه آفات قد نبهنا عليها في كتاب العلم، والحزم الإحتراز بالعزلة وترك الاستكثار من الأصحاب ما أمكن، بل الذي يطلب الدنيا بتدريسه وتعليمه فالصواب له إن كان غافلًا في مثل هذا الزمان أن يتركه. فلقد صدق أبو سليمان الخطابي حيث قال: دع الراغبين في صحبتك والتعلم منك فليس لك منهم مال ولا جمال، إخوان العلانية أعداء السر، إذا لقوك تملقوك وإذا غبت عنهم سلقوك، من أتاك منهم كان عليك رقيبًا وإذا خرج كان عليك خطيبًا، أهل نفاق ونميمة وغلّ وخديعة، فلا تغتر باجتماعهم عليك فما غرضهم العلم بل الجاه والمال وأن يتخذوك سلمًا إلى أوطارهم

(١) موضوع: حديث «آفة العلم الخيلاء». المعروف ما رواه مطين في مسنده من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف «آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء»، [انظر السلسلة الضعيفة: ١٣٠٢].

وأغراضهم وحمازًا في حاجاتهم، إن قصرت في غرض من أغراضهم كانوا أشد أعدائك، ثم يعدون ترددهم إليك دالة عليك ويرونه حقًا واجبًا لديك، ويفرضون عليك أن تبذل عرضك وجاهك ودينك لهم فتعادي عدوهم وتنصر قريتهم وخادمهم ووليهم، وتنتهز لهم سفيهاً وقد كنت فقيهاً، وتكون لهم تابعًا خسيئًا بعد أن كنت متبوعًا رئيسًا. ولذلك قيل: اعتزال العامة مروءة تامة. فهذا معنى كلامه وإن خالف بعض ألفاظه، وهو حق وصدق. فإنك ترى المدرسين في رق دائم وتحت حق لازم ومنة ثقيلة ممن يتردد إليهم فكأنه يهدي تحفة إليهم ويرى حقه واجبًا عليهم. وربما لا يختلف إليه ما لم يتكفل برزق له على الإدرار. ثم إن المدرس المسكين قد يعجز عن القيام بذلك من ماله، فلا يزال مترددًا إلى أبواب السلاطين ويقاسي الذل والشدائد مقاساة الذليل المهين حتى يكتب له على بعض وجوه السحت مال حرام، ثم لا يزال العامل يسترقه ويستخدمه ويمتتهنه ويستذله إلى أن يسلم إليه ما يقدره نعمة مستأنفة من عنده عليه، ثم يبقى في مقاساة القسمة على أصحابه إن سوى بينهم مقتته المميزون ونسبوه إلى الحمق وقلة التمييز والقصور عن درك مصارفات الفضل والقيام بمقادير الحقوق بالعدل، وإن فاوت بينهم سلقه السفهاء بالأسنة حداد وثاروا عليه ثوران الأسود والآساد، فلا يزال في مقاساتهم في الدنيا وفي مطالبة ما يأخذه ويفرقه عليهم في العقبي. والعجب أنه مع هذا البلاء كله يمني نفسه بالأباطيل ويدليها بحبل الغرور ويقول لها، لا تفترى عن صنيعك فإنما أنت بما فعلينه مريدة وجه الله تعالى، ومذبة شرع رسول الله ﷺ، وناشرة علم دين الله، وقائمة بكفاية طلاب العلم من عباد الله، وأموال السلاطين لا مالك لها وهي مرصدة للمصالح وأي مصلحة أكبر من تكثير أهل العلم؟ فيهم يظهر الدين ويتقوى أهله. ولو لم يكن ضحكة للشيطان لعلم بأدنى تأمل أن فساد الزمان لا سبب له إلا كثرة أمثال أولئك الفقهاء الذين يأكلون ما يجدون ولا يميزون بين الحلال والحرام، فتلحظهم أعين الجهال ويستجرون على المعاصي باستجرائهم اقعءاء بهم واقتفاء لآثارهم. ولذلك قيل: ما فسدت الرعية إلا بفساد الملوك وما فسدت الملوك إلا بفساد العلماء.

فنعوذ بالله من الغرور والعمى فإنه الداء الذي ليس له دواء.

الفائدة الثانية: النفع والانتفاع.

أما الانتفاع بالناس؛ فبالكسب والمعاملة. وذلك لا يتأتى إلا بالمخالطة والمحتاج إليه مضطر إلى ترك العزلة فيقع في جهاد من المخالطة أن طلب موافقة الشرع فيه. كما ذكرناه في كتاب الكسب. فإن كان معه مال لو اكتفى به قانعًا لأقتعه فالعزلة أفضل له إذا انسدت طرق المكاسب في الأكثر إلا من المعاصي، إلا أن يكون غرضه الكسب للصدقة، فإذا اكتسب من وجهه وتصدق به فهو أفضل من العزلة للاشتغال بالنافلة، وليس بأفضل من العزلة للاشتغال بالتحقق في معرفة الله ومعرفة علوم الشرع، ولا من الإقبال بكنه الهمة على الله تعالى والتجرد

بها لذكر الله؛ أعني من حصل له أنس بمناجاة الله عن كشف وبصيرة لا عن أوهام وخيالات فاسدة.

وأما النفع: فهو أن ينفع الناس إما بماله أو ببدنه فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة. ففي النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب وذلك لا ينال إلا بالمخالطة. ومن قدر عليها مع القيام بحدود الشرع فهي أفضل له من العزلة إن كان لا يشتغل في عزلته إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية، وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر فذلك لا يعدل به غيره البتة.

الفائدة الثالثة: التأديب والتأدب.

ونعني به الارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة في تحمل أذاهم كسرًا للنفس وقهرًا للشهوات. وهي من الفوائد التي تستفاد بالمخالطة، وهي أفضل من العزلة في حق من لم تهذب أخلاقه، ولم تدعن لحدود الشرع شهواته، ولهذا انتدب خدام الصوفية في الرباطات فيخالطون الناس بخدمتهم وأهل السوق للسؤال منهم كسرًا لرعونة النفس واستمدادًا من بركة دعاء الصوفية المنصرفين بهمهم إلى الله سبحانه. وكان هذا هو المبدأ في الأعصار الخالية والآن قد خالطته الأغراض الفاسدة ومال ذلك عن القانون كما مالت سائر شعائر الدين، فصار يطلب من التواضع بالخدمة التكثير بالاستتباع والتذرع إلى جمع المال والاستظهار بكثرة الأتباع، فإن كانت النية هذه فالعزلة خير من ذلك ولو إلى القبر، وإن كانت النية رياضة النفس فهي خير من العزلة في حق المحتاج إلى الرياضة، وذلك مما يحتاج إليه في بداية الإرادة، فبعد حصول الارتياض ينبغي أن يفهم أن الدابة لا يطلب من رياضتها عين رياضتها، بل المراد منها أن تتخذ مركبًا يقطع به المراحل ويطوى على ظهره الطريق، والبدن مطية للقلب يركبها ليسلك بها طريق الآخرة وفيها شهوات إن لم يكسرها جمحت به في الطريق، فمن اشتغل طول العمر بالرياضة كان كمن اشتغل طول عمر الدابة برياضتها ولم يركبها، فلا يستفيد منها إلا الخلاص في الحال في عضها ورفسها ورمحها، وهي لعمرى فائدة مقصودة ولكن مثلها حاصل في البهيمة الميتة، وإنما ترد الدابة لفائدة تحصل من حياتها، فكذلك الخلاص من ألم الشهوات في الحال يحصل بالنوم والموت، ولا ينبغي أن يقنع به كالراهب الذي قيل له: يا راهب، فقال: ما أنا راهب إنما أنا كلب عقور حبست نفسي حتى لا أعقر الناس، وهذا حسن بالإضافة إلى من يعقر الناس ولكن لا ينبغي أن يقتصر عليه، فإن من قتل نفسه أيضًا لم يعقر الناس، بل ينبغي أن يتشوف إلى الغاية المقصودة بها. ومن فهم ذلك واهتدى إلى الطريق وقدر على السلوك استبان له أن العزلة أعون له من المخالطة. فأفضل لمثل هذا الشخص المخالطة أولًا والعزلة آخرًا.

وأما التأديب: فإنما نعني به أن يروض غيره وهو حال شيخ الصوفية معهم، فإنه لا يقدر على

تهذيبهم إلا بمخالطتهم، وحاله حال المعلم وحكمه، ويتطرق إليه من دقائق الآفات والرياء ما يتطرق إلى نشر العلم إلا أن مخايل طلب الدنيا من المريدين الطالبين للارتياض أبعدها منها من طلبه العلم، ولذلك يرى فيهم قلة وفي طلبه العلم كثرة. فينبغي أن يقيس ما تيسر له من الخلوة بما تيسر له من المخالطة وتهذيب القوم، وليقابل أحدهما بالآخر وليؤثر الأفضل، وذلك يدرك بدقيق الاجتهاد ويختلف بالأحوال والأشخاص فلا يمكن الحكم عليه مطلقاً بنفي ولا إثبات.

الفائدة الرابعة: الاستئناس والإيناس.

وهو غرض من يحضر الولايم والدعوات ومواضع المعاشرة والأنس، وهذا يرجع إلى حظ النفس في الحال. وقد يكون ذلك على وجه حرام بمؤانسة من لا تجوز مؤانسته، أو على وجه مباح. وقد يستحب ذلك الأمر الدين وذلك فيمن تستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله في الدين كالأنس بالمشايخ الملازمين لسمت التقوى. وقد يتعلق بحظ النفس ويستحب إذا كان الغرض منه ترويح القلب لتهييج دواعي النشاط في العبادة، فإن القلوب إذا أكرهت عميت ومهما كان في الوحدة وحشة وفي المجالسة أنس يروح القلب فهي أولى، إذ الوفق في العبادة من حزم العبادة، ولذلك قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا»^(١)، وهذا أمر لا يستغنى عنه فإن النفس لا تألف الحق على الدوام ما لم تروح؛ وفي تكليفها الملازمة داعية للفترة وهذا عنى بقوله عليه السلام: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرَفْقٍ» والإيغال فيه برفق دأب المستبصرين، ولذلك قال ابن عباس: لولا مخافة الوسواس لم أجالس الناس، وقال مرة: لدخلت بلاداً لا أنيس بها، وهل يفسد الناس إلا الناس؟ فلا يستغنى المعتزل إذا عن رفيق يستأنس بمشاهدته ومحادثته في اليوم واللييلة ساعة فليجتهد في طلب من لا يفسد عليه في ساعته تلك سائر ساعاته، فقد قال ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»^(٢)، وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء في أمور الدين وحكاية أحوال القلب وشكواه وقصوره عن الثبات على الحق والاهتداء إلى الرشد، ففي ذلك متنفس ومتروح للنفس، فيه مجال رحب لكل مشغول بإصلاح نفسه فإنه لا تنقطع شكواه ولو عمر أعماراً طويلة، والراضي عن نفسه مغرور قطعاً. فهذا النوع من الاستئناس في بعض أوقات النهار ربما يكون أفضل من العزلة في حق بعض الأشخاص فليتفقد فيه أحوال القلب وأحوال الجليس أولاً ثم ليجالس.

الفائدة الخامسة: في نيل الثواب وإنالته.

أما النيل فبحضور الجنائز وعبادة المريض وحضور العيدين، وأما حضور الجمعة فلا بد منه. وحضور الجماعة في سائر الصلوات أيضاً لا رخصة في تركه إلا لخوف ضرر ظاهر يقاوم

(١) صحيح: حديث «إن الله لا يمل حتى تملوا». تقدم، [بخاري: ١١٥١، مسلم: ٧٨٢ عن عائشة].

(٢) حسن: حديث «المرء على دين خليله». تقدم في آداب الصحبة، [أبو داود: ٤٨٣٣، الترمذي: ٢٣٧٨،

انظر السلسلة الصحيحة: ٩٢٧].

ما يفوت من فضيلة الجماعة ويزيد عليه، وذلك لا يتفق إلا نادراً، وكذلك في حضور الإملاكات والدعوات ثواب من حيث إنه إدخال سرور على قلب مسلم.

وأما إنالته فهو أن يفتح الباب لتعوده الناس أو ليعزوه في المصائب أو يهنوه على النعم فإنهم ينالون بذلك ثواباً، وكذلك إذا كان من العلماء وإذن لهم في الزيارة نالوا ثواب الزيارة، وكان هو بالتمكين سبباً فيه، فينبغي أن يزن ثواب هذه المخالطات بأفاتها التي ذكرناها، وعند ذلك قد ترجح العزلة وقد ترجح المخالطة. فقد حكى عن جماعة من السلف مثل مالك وغيره ترك إجابة الدعوات وعبادة المرضى وحضور الجنائز، بل كانوا أحلاس بيوتهم لا يخرجون إلا إلى الجمعة أو زيارة القبور، وبعضهم فارق الأمصار وانحاز إلى قلل الجبال تفرغاً للعبادة وفراراً من الشواغل.

الفائدة السادسة: من المخالطة التواضع.

فإنه من أفضل المقامات ولا يقدر عليه في الوحدة، وقد يكون الكبر سبباً في اختيار العزلة. فقد روي في الإسرائيليات أن حكيمًا من الحكماء صنف ثلاثمائة وستين مصحفًا في الحكمة حتى ظن أنه قد نال عند الله منزلة، فأوحى الله إلى نبيه: قل لفلان إنك قد ملأت الأرض نفاقًا وإني لا أقبل من نفاقك شيئًا، قال: فتخلى وانفرد في سرب تحت الأرض وقال: الآن قد بلغت رضا ربي، فأوحى الله إلى نبيه قل له: إنك لن تبلغ رضاي حتى تخالط الناس وتصبر على أذاهم، فخرج فدخل الأسواق وخالط الناس وجالسهم وواكلهم وأكل الطعام بينهم ومشى في الأسواق معهم، فأوحى الله تعالى إلى نبيه: الآن قد بلغ رضاي. فكم من معتزل في بيته وباعثه الكبر ومانعه عن المحافل أن لا يوقر أو لا يقدم، أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحله وأتقى لطراوة ذكره بين الناس، وقد يعتزل خيفة من أن تظهر مقابحه لو خالط فلا يعتقد فيه الزهد والاشتغال بالعبادة فيتخذ البيت سترًا على مقابحه إبقاء على اعتقاد الناس في زهده وتعبده من غير استغراق وقت الخلوة بذكر أو فكر، وعلامة هؤلاء أنهم يحبون أن يزاروا ولا يحبون أن يزوروا، ويفرحون بتقرب العوام والسلاطين إليهم واجتماعهم على بابهم وطرقهم وتقيلهم أيديهم على سبيل التبرك، ولو كان الاشتغال بنفسه هو الذي يبغض إليه المخالطة وزيارة الناس لبغض إليه زيارتهم له، كما حكيناه عن الفضيل حيث قال: وهل جئتني إلا لأتزين لك وتزين لي. وعن حاتم الأصم أنه قال للأمير الذي زاره: حاجتي أن لا أراك ولا تراني، فمن ليس مشغولاً مع نفسه بذكر الله فاعتزاله عن الناس سببه شدة اشتغاله بالناس، لأن قلبه متجرد للالتفات إلى نظرهم إليه بعين الوقار والاحترام. والعزلة بهذا السبب جهل من وجوه:

أحدها: أن التواضع والمخالطة لا تنقص من منصب من هو متكبر بعلمه أو دينه إذ كان علي رضي الله عنه حمل التمر والملح في ثوبه ويده ويقول:

لا ينقص الكامل من كماله ما جرّ من نفع إلى عياله

وكان أبو هريرة وحذيفة وأبي وابن مسعود رضي الله عنهم يحملون حزم الحطب وجرب الدقيق على أكتافهم، وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول - وهو والي المدينة والحطب على رأسه - طرقتوا لأمركم. وكان سيد المرسلين ﷺ يشتري الشيء فيحمله إلى بيته بنفسه؛ فيقول له صاحبه: أعطني أحمله فيقول: «صَاحِبُ الشَّيْءِ أَحَقُّ بِحَمْلِهِ»^(١)، وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما يمر بالسؤال وبين أيديهم كسر فيقولون: هلم إلى الغداء يا ابن رسول الله فكان ينزل ويجلس على الطريق ويأكل معهم ويركب ويقول: ﴿إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣] .

الوجه الثاني: أن الذي شغل نفسه بطلب رضا الناس عنه وتحسين اعتقادهم فيه مغرور، لأنه لو عرف الله حق المعرفة علم أن الخلق لا يغنون عنه من الله شيئاً؛ وأن ضرره ونفعه بيد الله ولا نافع ولا ضار سواه، وأن من طلب رضا الناس ومحبتهم بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، بل رضا الناس غاية لا تتال، فرضا الله أولى بالطلب. ولذلك قال الشافعي ليونس بن عبد الأعلى: والله ما أقول لك إلا نصحاً إنه ليس إلى السلامة من الناس من سبيل، فانظر ماذا يصلحك فافعله؟ ولذلك قيل:

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا وَفَازَ بِاللَّذَةِ الْجَسُورِ

ونظر سهل إلى رجل من أصحابه فقال له: اعمل كذا وكذا - لشيء أمره به - فقال: يا أستاذ لا أقدر عليه لأجل الناس، فالتفت إلى أصحابه وقال: لا ينال عبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين؛ عبد تسقط الناس من عينه فلا يرى في الدنيا إلا خالقه، وأن أحدًا لا يقدر على أن يضره ولا ينفعه. وعبد سقطت نفسه عن قلبه فلا يبالي بأي حال يرونها. وقال الشافعي رحمه الله: ليس من أحد إلا وله محب ومبغض فإذا كان هكذا فكُنْ مع أهل طاعة الله. وقيل للحسن: يا أبا سعيد إن قومًا يحضرون مجلسك ليس بغيتهم إلا تتبع سقطات كلامك وتعنتك بالسؤال؛ فتيسم وقال للقائل: هوّن على نفسك فإنني حدثت نفسي بسكنى الجنان ومجاورة الرحمن فطمعت، وما حدثت نفسي بالسلامة من الناس لأنني قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحبيهم ومميتهم لم يسلم منهم. وقال موسى عليه السلام: يا رب احبس عني السنة الناس فقال: يا موسى هذا شيء لم أصطفه لنفسك فكيف أفعله بك؟ وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى عزيز: إن لم تطب نفسك بأنني أجعلك علكًا في أفواه الماضغين لم أكتبك عندي من المتواضعين. فإذا من حبس نفسه في البيت ليحسن اعتقادات الناس وأقوالهم فيه فهو في

(١) موضوع: حديث: كان يشتري الشيء إلى بيته بنفسه فيقول له صاحبه أعطني أحمله فيقول «صاحب المتاع أحق بحمله». أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حمله السراويل الذي اشتراه، [انظر السلسلة الضعيفة: ٨٩].

عناء حاضر في الدنيا ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦] فإذا لا تستحب العزلة إلا لمستغرق الأوقات بربه ذكراً وفكراً وعبادة وعلماً بحيث لو خالطه الناس لضاعت أوقاته وكثرت آفاته ولتشوشت عليه عباداته. فهذه غوائل خفية في اختيار العزلة ينبغي أن تتقى فإنها مهلكات في صور منجيات.

الفائدة السابعة: التجارب.

فإنها تستفاد من المخالطة للخلق ومجاري أحوالهم. والعقل الغريزي ليس كافيًا في تفهم مصالح الدين والدنيا. وإنما تفيدها التجربة والممارسة، ولا خير في عزلة من لم تحنكه التجارب؛ فالصبي إذا اعتزل بقي غمراً جاهلاً بل ينبغي أن يشتغل بالتعلم، ويحصل له في مدة التعلم ما يحتاج إليه من التجارب ويكفيه ذلك، ويحصل بقية التجارب بسماع الأحوال ولا يحتاج إلى المخالطة. ومن أهم التجارب أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفات باطنه وذلك لا يقدر عليه في الخلوة، فإن كل مجرب في الخلاء يسر، وكل غضوب أو حقود أو حسود إذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبثه، وهذه الصفات مهلكات في أنفسها يجب إباطتها وقهرها ولا يكفي تسكينها بالتباعد عما يحركها. فمثال القلب المشحون بهذه الخبائث مثال دمل ممتلىء بالصديد والمدة وقد لا يحس صاحبه بألمه ما لم يتحرك أو يمسه غيره، فإن لم يكن له يد تمسه أو عين تبصر صورته ولم يكن من يحركه ربما ظن بنفسه السلامة ولم يشعر بالدمل في نفسه واعتقد فقده، ولكن لو حركه محرك أو أصابه مشرط حجام لانفجر منه الصديد وفار فوران الشيء المختنق إذا حبس عن الاسترسال، وكذلك القلب المشحون بالحقد والبخل والحسد والغضب وسائر الأخلاق الذميمة إنما تنفجر منه خبائثه إذا حرك. وعن هذا كان السالكون لطريق الآخرة الطالبون لتزكية القلوب يجربون أنفسهم. فمن كان يستشعر في نفسه كبراً سعى في إباطته حتى كان بعضهم يحمل قرية ماء على ظهره بين الناس أو حزمة حطب على رأسه ويتردد في الأسواق ليجرب نفسه بذلك فإن غوائل النفس ومكائد الشيطان خفية قل من يتفطن لها، ولذلك حكى عن بعضهم أنه قال: أعدت صلاة ثلاثين سنة مع أنني كنت أصليها في الصف الأول، ولكن تخلفت يوماً بعذر فما وجدت موضعاً في الصف الأول فوفقت في الصف الثاني فوجدت نفسي تستشعر خجلة من نظر الناس إلي وقد سبقت إلى الصف الأول، فعلمت أن جميع صلواتي التي كنت أصليها كانت مشوبة بالرياء مزروجة بلذة نظر الناس إلي ورؤيتهم إياي في زمرة السابقين إلى الخير. فالمخالطة لها فائدة ظاهرة عظيمة في استخراج الخبائث وإظهارها. ولذلك قيل: السفر يسفر عن الأخلاق فإنه نوع من المخالطة الدائمة. وستأتي غوائل هذه المعاني ودقائقها في ربيع المهلكات، فإن بالجهل بها يحبط العمل الكثير وبالعلم بها يزكو العمل القليل، ولولا ذلك ما فضل العلم على العمل، إذ يستحيل أن يكون العلم بالصلاة ولا يراود للصلاة إلا أفضل من الصلاة، فإننا نعلم أن ما يراود لغيره فإن ذلك

الغير أشرف منه، وقد قضى الشرع بتفضيل العالم على العابد حتى قال عليه السلام: «فَضَّلُ الْعَالِمَ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي»^(١)، فمعنى تفضيل العلم يرجع إلى ثلاثة أوجه: أحدها: ما ذكرناه.

والثاني: عموم النفع لتعدي فائدته والعمل لا تتعدى فائدته.

والثالث: أن يراد به العلم بالله وصفاته وأفعاله فذلك أفضل من كل عمل، بل مقصود الأعمال صرف القلوب عن الخلق إلى الخالق لتنبعث بعد الانصراف إليه لمعرفة ومحبته، فالعمل وعلم العمل مرادان لهذا العلم، وهذا العلم غاية المريرين والعمل كالشروط له، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [ناظر: ١٠] فالكلم الطيب هو هذا العلم، والعمل كالحمال الرافع له إلى مقصده فيكون المرفوع أفضل من الرافع. وهذا كلام معترض لا يليق بهذا الكلام. فلنرجع إلى المقصود فنقول: إذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقاً بالتفضيل نفياً وإثباتاً خطأ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله، وإلى الخليط وحاله، وإلى الباعث على مخالطته، وإلى الفئات بسبب مخالطته من هذه الفوائد المذكورة، ويقاس الفئات بالحاصل، فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل، وكلام الشافعي رحمه الله هو فصل الخطاب إذ قال: يا يونس الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين المنقبض والمنبسط. فلذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة، ويختلف ذلك بالأحوال. وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل. هذا هو الحق الصراح وكل ما ذكر سوى هذا فهو قاصر. وإنما هو إخبار كل واحد عن حالة خاصة هو فيها، ولا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له في الحال. والفرق بين العالم والصوفي في ظاهر العلم يرجع إلى هذا وهو أن الصوفي لا يتكلم إلا عن حاله فلا جرم تختلف أجوبتهم في المسائل، والعالم هو الذي يدرك الحق على ما هو عليه ولا ينظر إلى حال نفسه فيكشف الحق فيه، وذلك مما لا يختلف فيه فإن الحق واحد أبداً، والقاصر عن الحق كثير لا يحصى. ولذلك سئل الصوفية عن الفقر فما من واحد إلا وأجاب بجواب غير جواب الآخر، وكل ذلك حق بالإضافة إلى حاله وليس بحق في نفسه إذ الحق لا يكون إلا واحداً. ولذلك قال أبو عبد الله الجلاء - وقد سئل عن الفقر - فقال: اضرب بكميك الحائط وقل ربي الله فهو الفقر. وقال الجنيد: الفقير هو الذي لا يسأل أحداً ولا يعارض وإن عورض سكت. وقال سهل بن عبد الله: الفقير الذي لا يسأل ولا يدخر. وقال آخر: هو أن لا يكون لك فإن كان لك فلا يكون لك من حيث لم يكن لك. وقال إبراهيم الخواص: هو ترك

(١) حسن: حديث «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي». تقدم في العلم، [الترمذي: ٢٦٨٥، انظر صحيح الترغيب: ٨١].

الشكوى وإظهار أثر البلوى. والمقصود أنه لو سئل منهم مائة لسمع منهم مائة جواب مختلفة قلما يتفق منها اثنان، وذلك كله حق من وجه فإنه خير كل واحد عن حاله وما غلب على قلبه. ولذلك لا نرى اثنين منهم يثبت أحدهما لصاحبه قدمًا في التصوف أو يثني عليه، بل كل واحد منهم يدعي أنه الواصل إلى الحق والواقف عليه؛ لأن أكثر ترددهم على مقتضى الأحوال التي تعرض لقلوبهم فلا يشتغلون إلا بأنفسهم ولا يلتفتون إلى غيرهم. ونور العلم إذا أشرق أحاط بالكل وكشف الغطاء ورفع الاختلاف.

ومثال نظر هؤلاء ما رأيت من نظر قوم في أدلة الزوال - بالنظر في الظل - فقال بعضهم: هو في الصيف قدمان، وحكي عن آخر أنه نصف قدم، وآخر يرد عليه وأنه في الشتاء سبعة أقدام، وحكي عن آخر أنه خمسة أقدام، وآخر يرد عليه؛ فهذا يشبه أجوبة الصوفية واختلافهم، فإن كل واحد من هؤلاء أخبر عن الظل الذي رآه ببلد نفسه، فصدق في قوله وأخطأ في تخطئته صاحبه إذ ظن أن العالم كله بلده أو هو مثل بلده، كما أن الصوفي لا يحكم على العالم إلا بما هو حال نفسه، والعالم بالزوال هو الذي يعرف علة طول الظل وقصره وعلته اختلافه بالبلاد فيخبر بأحكام مختلفة في بلاد مختلفة ويقول في بعضها لا يبقى ظل، وفي بعضها يطول، وفي بعضها يقصر.

فهذا ما أردنا أن نذكره من فضيلة العزلة والمخالطة.

فإن قلت: فمن أثر العزلة ورآها أفضل له وأسلم فما آدابه في العزلة؟ فنقول: إنما يطول النظر في آداب المخالطة وقد ذكرناها في كتاب آداب الصحبة. وأما آداب العزلة فلا تطول فينبغي للمعتزل أن ينوي بعزلته كف شر نفسه عن الناس أولاً، ثم طلب السلامة من شر الأشرار ثانيًا، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ثالثًا، ثم التجرد بكنه الهمة لعبادة الله رابعًا؛ فهذه آداب نيته. ثم ليكن في خلوته مواظبًا على العلم والعمل والذكر والفكر ليجتني ثمرة العزلة ول يمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته فيشوش أكثر وقته. وليكف عن السؤال عن أخبارهم وعن الإصغاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به، فإن كل ذلك ينفرس في القلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة أو الفكر من حيث لا يحتسب، فوقع الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض فلا بد أن ينبت وتتفرع عروقه وأغصانه ويتداعى بعضها إلى بعض. وأحد مهمات المعتزل قطع الوسوس الصارفة عن ذكر الله. والأخبار ينابيع الوسوس وأصولها. وليقتنع باليسير من المعيشة وإلا اضطره التوسع إلى الناس واحتاج إلى مخالطتهم. وليكن صبورًا على ما يلقاه من أذى الجيران وليسد سمعه عن الإصغاء إلى ما يقال فيه من ثناء عليه بالعزلة أو قدح فيه بترك الخلطة، فإن كل ذلك يؤثر في القلب ولو مدة يسيرة، وحال اشتغال القلب به لا بد أن يكون واقفًا عن سيره إلى طريق الآخرة، فإن السير إما بالواظبة على ورد وذكر مع حضور قلب، وإما بالفكر في جلال الله وصفاته وأفعاله وملكوته سمواته

وأرضه، وإما بالتأمل في دقائق الأعمال ومفاسدات القلوب وطلب التحصن منها. وكل ذلك يستدعي الفراغ والإصغاء إلى جميع ذلك مما يشوش القلب في الحال.

وقد يتجدد ذكره في دوام الذكر من حيث لا ينتظر. وليكن له أهل صالحة أو جليس صالح لتستريح نفسه إليه في اليوم ساعة من كد المواظبة فيه عون على بقية الساعات. ولا يتم له الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا وما الناس منهمكون فيه، ولا ينقطع طمعه إلا بقصر الأمل بأن لا يقدر لنفسه عمراً طويلاً، بل يصبح على أنه لا يمسي ويمسي على أنه لا يصبح، فيسهل عليه صبر يوم ولا يسهل عليه العزم على الصبر عشرين سنة لو قدر تراخي الأجل. وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر مهما ضاق قلبه من الوحدة. وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به فلا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت. وأن من أنس بذكر الله ومعرفته فلا يزيل الموت أنسه إذ لا يهدم الموت محل الأنس والمعرفة، بل يبقى حياً بمعرفته وأنسه فرحاً بفضل الله عليه ورحمته، كما قال الله تعالى في الشهداء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠] وكل متجرد لله في جهاد نفسه فهو شهيد مهما أدركه الموت مقبلاً غير مدبر «فالمجاهد من جاهد نفسه وهواه»^(١)، كما صرح به رسول الله ﷺ. والجهاد الأكبر جهاد النفس، كما قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، يعنون جهاد النفس.

تم كتاب العزلة، ويتلوه: كتاب آداب السفر، والحمد لله وحده

(١) صحيح: حديث «المجاهد من جاهد نفسه وهواه». أخرجه الحاكم من حديث فضالة بن عبيد وصححه دون قوله «وهواه» وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة، [الترمذي: ١٦٢]، انظر صحيح الترمذي: [١٢١٨].